من الفكر الاجتماعي إلى علم الاجتماع:

تقديم:

نشأ علم الاجتماع شأنه في ذلك شأن كثير من العلوم الاجتماعية الأخرى، مرتبطا بالفلسفة، فكان يستند في محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية للفكر الفلسفي، ولما أصبح لهذا العلم منهج وموضوع انفصل عن الفلسفة، واستقل بطرقه الخاصة في البحث والتحليل، وصارت الفلسفة تستوحيه في فهم بعض الظواهر الذي استطاع هذا العلم الوليد أن يستجلي جوانبها بطرقه الخاصة.

لذلك يصعب على كل من القارئ أو الباحث المبتدئ أو حتى المتخصص في علم الاجتماع أن يتعرف بوضوح على طبيعة هذا العلم، أو نوعية موضوعاته ومجالاته ونظرياته ومناهجه وطرق بحثه وأدوات دراسته النظرية أو الميدانية دون أن تكون لديه خلفية تاريخية عن نشأة هذا العلم ذاته، وكيف تطور خلال القرنين الماضيين على وجه الخصوص، ومن ثم تأتي ضرورة أن يسعى الدارس لمعرفة وتحليل نشأة علم الاجتماع باعتباره من العلوم الرائدة في الوقت الراهن ومن أهم العلوم الاجتماعية.

فمن البديهي أن يحاول الباحث أو الدارس في مراحل دراسته الأولى لعلم الاجتماع أن يركز على دراسته وتحليل الجذور الأولى لنشأة هذا العلم وطبيعة الإسهامات الفكرية والاجتماعية التي مهدت لظهوره، وبلورت معالمه النظرية وبحوثه الامبريقية التي لا يمكن الاستغناء عنها في مجتمعنا الحديث ولاسيما أن طبيعة المشكلة الاجتماعية لا يمكن فهمها أو التعرف على أسبابها الأولى أو زيادة نتائجها وتفاقمها دون الإلمام بخلفية كبيرة من طبيعة علم الاجتماع وكيف ظهر في صورته الحالية في الوقت الراهن.

ومن هذا المنطلق نحاول في هذا المحور تقديم خلفية تاريخية –ولو بصورة موجزة- لكيفية تطور الفكر الاجتماعي والذي أدى إلى ظهور علم الاجتماع، وما هي نوعية هذا الفكر الاجتماعي الذي ارتبط بتطور كل من العقل البشري والمجتمعات الإنسانية في نفس الوقت خاصة وأن من أهم أهداف علم الاجتماع دراسة الحقائق والوقائع والظواهر الاجتماعية كما هي موجودة في الواقع، هذا بالإضافة إلى أن دراسة المشاكل والظواهر والنظم الاجتماعية التي توجد في مجتمعنا الحديث لا يمكن فهمها بعيدا عن دراسة طبيعة التغيير الذي ارتبط بكل من العقل البشري أو أنماط التفكير الإنساني وطبيعة الجماعات والمجتمعات البشرية منذ أن عرفت هذه المجتمعات حياة الاستقرار.

ومن ثم سنركز على أهم ملامح الفكر الاجتماعي خلال العصور القديمة وطبيعة اختلاف هذا الفكر عن المجتمعات القديمة الغربية، وإلى أي حد مهدت كل منها إلى ظهور وتغير الفكر الاجتماعي خلال العصور الوسطى، ولاسيما ما يعرف بالعصور الرومانية أو المسيحية، كما نحاول أن نتعرف كذلك على طبيعة ونوعية الفكر الاجتماعي الإسلامي الذي أدى إلى ظهور حضارة إسلامية مهدت لظهور الحضارة الغربية، كما يعترف بذلك العديد من مؤرخي علم الاجتماع خاصة والعلوم الاجتماعية عامة، من ناحية أخرى تسعى لتحليل الجذور الأولى والممهدة لنشأة علم الاجتماع، التي أعطت دفعة قوية لظهور علم الاجتماع سواء كانت عوامل فكرية أم اقتصادية أم سياسية.

1- الفكر الاجتماعي في الحضارات القديمة:

إن الفكر الاجتماعي قديم قدم الوجود الإنساني ذاته، ولذلك يصعب تحديد بداية معينة تقول أن الفكر الاجتماعي قد بدأ فيها، فطالما وجد الإنسان فردا أو أكثر أو جماعة أو مجتمعا فإن هذا الفكر هو لازمة هذا الوجود.

لكن كتابات التخصصين حول الفكر الاجتماعي درجوا في العادة على أن يبدؤوا هذا التاريخ من المجتمعات التي لها تاريخ مكتوب، أو وجدت آثار أو حفائر تدل على شكل أو نمط هذا التفكير، أما المجتمعات التي ليس لها تاريخ أو آثار فإنها تخرج من نطاق هذا الفكر.

وقد بدأت الكتابات المدونة عن الفكر الاجتماعي بدءا عما ساد بلدان الشرق الأدنى القديم ومع أن حضارات الشرق الأدنى القديم قدمت أدبيات كثيرة في مجال الفكر الاجتماعي، إلا أنها لم تنل الاهتمام الواجب لدى مؤرخي الفكر الاجتماعي خاصة الغربيين، وكان مصدر ذلك يرجع إلى نزعة عنصرية متحيزة لا تريد أن تعترف لهذه المجتمعات بأي فضل في تطور الحضارة الإنسانية، وفي أبسط الحالات يمكن تفسير هذا الإهمال يجهل هؤلاء المهنيين والباحثين بطبيعة اللغات التي كتبت بها هذه الأدبيات وإن كنا نرى تصاعدا في الإشارة بفضل الحضارات القديمة وما قدمته للفكر الإنساني والاجتماعي.

فقد عرف الشرق القديم تطورات فكرية هامة تمثلت في ظهور عدد من الفلاسفة ورجال الدين والحكماء والمصلحين الاجتماعيين الذين حاولوا الإسهام في فهم طبيعة مجتمعاتهم، وتحديد الأسس والدعائم المادية والروحية التي تستند إليها ومن الطبيعي أن يلعب الدين والفلسفة دورا هاما في تشكيل الفكر الاجتماعي الذي ظهر في المجتمعات والحضارات الشرقية القديمة وعلى الأخص مصر وبابل والهند والصين، وهذا ما تتطرق له في العناصر القادمة بشيء من التفصيل.

قبل الحديث عن تطور الفكر الاجتماعي في مختلف الحضارات الإنسانية يجب الإشارة إلى مفهوم الحضارة باعتبارها: **"نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، و إنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حين ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دو افع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحو افز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها"**.[1]

أ-الحضارة المصرية: ما من شك أن الحضارة الفرعونية القديمة قد تركت بصمتها على جميع الحضارات البشرية بدءا من الحضارات القديمة، سواء التي ظهرت في الشرق الأدنى القديم أو التي ظهرت في المجتمعات الغربية، علاوة على أنها تعتبر المصدر الأساسي لظهور الحضارات الأخرى التي ظهرت خلال العصور الوسطى، كما لا تمكن التعرف على ملامح الحضارة الحديثة، دون الرجوع إلى تطور هذه الحضارة واعتبار مصر الفرعونية، مصدرا أساسيا للفكر البشري سواء في مجال الطب أو العلوم الطبيعية أو الإنسانية بصورة عامة.

فالباحث المتخصص في تاريخ مصر الفرعونية يستطيع أن يلاحظ بوضوح طبيعة البناء الاجتماعي والطبقي وعلاقته بالنظم الاجتماعية الأخرى، ولاسيما النظام الديني (الكهنوتي)، السياسي والاقتصادي، والأسري، والإداري وكثير من النظم الاجتماعية مثل: الضبط الاجتماعي، والمعتقدات والقيم والعادات والتقاليد غيرها، حيث مكن ملاحظة الوضع الطبقي والسياسي والإداري الذي كان يتمتع به الفرعون أو الملك وما يتبعه من تسلسل مرمي لبقية الفئات الاجتماعية الأخرى والذي يعكس في حد ذاته العلاقة القوية بين الفرعون ومنزلته التي كانت لا تقل شيئا عن وضع الآلهة أو من يتوب عليهم على سطح الأرض، وهذا ما جعل المصريين القدماء يتصرفون على أنه الآلهة بصورة عامة، وهذا ما يعكس في نفس الوقت طبيعة نسق المعتقدات الدينية والاعتقاد بصورة خاصة في الحياة بعد الممات أو ما يعرف بخلود الأرواح أو حياة البعث.[2]

في نفس الوقت إن طبيعة الحياة الاجتماعية بصورة عامة، تفسر لنا بوضوح نوعية العلاقة الطبقية أو الطبقات الاجتماعية، وطبيعة الوضع المهني أو الحياة الاقتصادية والدينية عموما، وهذا ما تمكن ملاحظته مع التخصص المهني لكل من الفراعنة والكهنة والصناع وقادة الجيش والحراس والفلاحين وغيرهم من الطبقات الاجتماعية الأخرى، التي كانت تتحدد وتشكل حسب طبيعة البناء الاجتماعي الطبقي الموروث، وطبقا للنسق الديني الذي كان سائدا آنذاك.

من ناحية أخرى تفسر لنا طبيعة النظم الاجتماعية الأخرى مثل: الأسرة والنظام العائلي والزواج والنظام التربوي أو التنشئة الاجتماعية ونوعية العلاقة المتبادلة بين أفراد المجتمع ككل، علاوة أن النظام الاقتصادي والمهني والسياسي لا يمكن

---

(1) ويل ديورنت: قصة الحضارة، ترجمة: بدران وآخرون، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع حاليا، المجلة الأول، بيروت، لبنان، 1970، ص 12.

(2) عبد الله محمد عبد الرحمان: علم اجتماع التربية، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية) مصر، 1998، ص18.

فصلها تماما عن الأخر، دون الرجوع إلى دراسة طبيعة الحياة الاجتماعية، ونوعية القوانين والأعراف التي كانت تحدد طبيعة هذه الحياة وهذا ما أيدته الوثائق والنقوش الفرعونية المتعددة، والتي فسرت لنا نوعية الملكية والميراث والولاية والهبة والتقاضي والمحاكمة وأيضا نظام دفن الموتى سواء أكانوا ملوكا أم أفراد عاديين.

حقيقة إن دراسة أنماط الفكر الاجتماعي أو العقل البشري خلال مصر الفرعونية يستطيع أن يوضح لنا كيفية ارتباط هذا العقل أو السلوك البشري بنوعية النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والقانوني والأخلاقي والديني وغيره من النظم الاجتماعية الأخرى، علاوة على تحليل العلاقة بين السلوك البشري وأنماط تفكيره وطبيعة الخرافات والمثل والأخلاق الاجتماعية تكشف عن العديد من أنماط العلاقات الاجتماعية والتي تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين وأساليب الرعاية والتكافل الاجتماعي مثل: رعاية الفقراء، والرقيق، والشيوخ والعجزة والأرامل والأطفال وغيرهم.

بصورة موجزة، إن دراسة طبيعة الفكر الاجتماعي الفرعوني تستطيع أن تفسر طبيعة الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في مصر الفرعونية وكيفية ارتباط هذا الفكر بنوعية المنسق أو النظام الديني على وجه الخصوص علاوة على ذلك إن تحليل نوعية الحياة الاجتماعية تعكس لنا بوضوح عن نوعية النظام السياسي الذي كان موجودا بالفعل وكيفية ارتباطه بالنظام الديني وما تمتعت به الطبقة الفرعونية عن بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى، من ناحية أخرى لا يمكن فصل طبيعة النظم السياسية والاقتصادية والدينية (الكهنوتية) عن نوعية النظم القانونية والأخلاقية التي كانت توجد في مصر الفرعونية.

وأخيرا لقد أسهمت مصر الفرعونية بحضارتها وأنماط وأساليب الحياة الاجتماعية فيها، في تطور العديد من الحضارات التي ظهرت في الشرق القديم أو الدول الغربية القديمة، وحضارات العصر الحديث، والتي لا تزال مبهورة بنوعية التقدم الطبي والمعماري الذي كان موجودا في مصر الفرعونية ولا يزال يشكل لغزا لا يعرفه إلا المصريين القدماء.[1]

ب- الحضارة الميزوبوتامية Mésopotamie :

تعددت التسميات المطلقة على هذه الحضارة العريقة، لكن أقربها ترجمة لكلمة "الميزوبوتامي" تسميتها بـ "حضارة ما بين النهرين " "دجلة والفرات" أو " العراق القديمة ".

تعاقبت على هذه الحضارة عدة إمبراطوريات ضمن إطار واحد، فأعطت لها كل واحدة منها طابعها العام والمميز، حتى البعض اعتبرها حضارات مختلفة لا حضارة واحدة فقط وإن كان الشكل العام واحد، فقد أخذت كل إمبراطورية اسمها من الشعب الذي تولى الحكم خلال تلك الفترة، وأهم هذه الإمبراطوريات المتعاقبة.

- الإمبراطورية السومرية (القرن 32 – 34 ق- م).
- الإمبراطورية الأكادية - السومرية (القرن 24 – 20 ق- م).
- الإمبراطورية البابلية (القرن 20 – 12 ق- م).
- الإمبراطورية الآشورية (القرن 11 – 7 ق- م).
- الإمبراطورية الكلدانية (626 - 539 ق- م).

ومن أهم الخصائص المميزة للحضارة الميزوبوتامية:

- **المنظومة القانونية:** تعتبر أقدم حضارة عرفت نظاما قانونيا دقيقا وقائما بذاته ترجمت مجموعاتها القانونية إلى عدة لغات، وما يزال القضاء الحديث يعتمد على أغلب أجزائها إلى اليوم، ولعل أشهر هذه المجموعات قانون " أورنامو" و "حمورابي "

---

[1] عبد الله محمد عبد الرحمان: علم اجتماع، النشأة والتطور، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية) مصر، 1999، ص15-16.

وهما يضمان نظما مختلفة تتعلق بالجوانب الاقتصادية والزراعية والاجتماعية وغيرها وأحكاما متفرقة في الرق والجرائم والعقوبات.

وما ساهم في تطور هذه القوانين المستوى الاقتصادي والاجتماعي والديني الذي شهدته هذه الحضارة في مختلف المجالات، كما كان نظام العقوبات دقيقا يقوم على المعاملة بالمثل والسرية وحفظ حق الأشخاص والأموال، وقد تكون العقوبات مالية أو جسدية، تختلف حسب الطبقات (العبيد، الأسياد، الأحرار).

– **النظام الزراعي:** كان متطورا يستجيب لمتطلبات الحياة اليومية والاقتصادية وما زاد في تقدمه دعم الحكام له وقد تجلى في عدة مظاهر أهمها: تسجيل الأراضي، إنجاز الدراسات المسحية، ترتيب نظام توزيع القنوات، السقي، وتصميم المخططات ...إلخ.

– **الصناعة والتجارة:** عرفت التقنية تقدما كبيرا خاصة التعامل مع المعادن وصبها والفخار وصناعته، وأحرزت الصناعة الحرفية تطورا ملحوظا من زجاج ونسيج وغيرهما، ومن المحتمل أن النفايات الحرفية التي وجدت فيها تعود إلى عام 2000 ق-م ما ساهم في تفعيل التجارة الخارجية بخاصة (تصدير القماش مقابل الذهب من الهند ومصر، والنحاس من قبرص وآسيا، والقصدير من القوقاز) كما كانت بلاد ما بين النهرين مركزا تجاريا نشطا داخليا ما أثر على وسائل النقل البرية والبحرية وتطور النظام التقدي.

– **المعتقدات الدينية:** كغيرها من الشعوب البدائية مرت الحياة الدينية في حضارة ما بين النهرين من حيث الألوهية بجملة من المراحل: (تقديس مظاهر الطبيعة، عبادة القوى الكامنة، إصباغ الطابع البشري على الآلة، تأليه الخصب أو الزرع، المجموعات الثلاثية للآلهة، تقديس أنصاف الآلهة والعمالقة).

وقد تعددت المعتقدات الدينية، وكثرت المعابد في كل مدينة، إذ أن لكل منها إلهها الرئيسي (على شكل تمثال) وتحاول كل مدينة فرض إلهها على المدن الأخرى (لأن ذلك رمز الانتصار عليها وترفض عبادة إله مدينة أخرى.

– **النظام السياسي:** الحكم موزع بين الملك والكاهن والأسياد، فوظيفة الملك شرفية لأن الحكم من الناحية القضائية يندرج في صلاحيات الكاهن والأعيان أحيانا (عهد حمورابي) أما من الناحية الإدارية فهو من صلاحيات الموظفين والأسياد، وقد يصبح الكاهن حاكما بصفة "شرعية" والملك وراثي، أما الضرائب فتجمع من قبل الموظفين مع وجود مراقبين يتولون أمر الشكايات ووضع حد لتجاوزات الولاة.

– **نظام الأسرة:** ربع التشريعات المنتجة في هذه الحضارة تتعلق بالأسرة، وتعتبر هذه الأخيرة وحيدة الزوجة إلا لظروف طارئة (مرض أو عدم إنجاب) فالغاية منها قانون الإنجاب، إلا أنه رغم المكانة التي تحتلها المرأة فقد كان بالإمكان بيعها إن أرادت ذلك لعائلة أكثر غنا أو رهنها مقابل دين.

– **العمران:** تدل الآثار القديمة لهذه الحضارة على أنها أول من شيدت على يدها المدن وعاشت فترة استقرار وازدهار، وإن بقيت القرى أو الأرياف منفصلة عنها بشكل واضح، مع احتمال وجود علاقة تبادلية بينها وبين الحضارات الأخرى المجاورة لها خاصة المصرية بداية من 3500 ق.م. وتشكل منطقة "ما بين النهرين" أكبر موقع للتجمع السكاني، إذ عرفت تزايدا ديموغرافيا كبيرا لاسيما بعد إنشاء نظام قنوات المياه، ما جلب لها أعداد كبيرة من السكان وتمازجت فيها أجناس متعددة وكانت المدن محاطة بالأسوار الضخمة للدفاع عن نفسها من جهة واستخدامها جسورا من جهة أخرى.

– **التعليم:** استخدمت المعابد مراكز للتعليم وتدريب التلاميذ وتخريجهم كتابا أو أطباء أو محامين أو كهنة، وللتلاميذ مكانة مرموقة ويصنفون بعد التكوين إلى طقوسين أو عرافين، ونتيجة لذلك تطورت حركة العلوم من معرفة للتنجيم وحركة الأجرام وصيرورة السكون.

وفي مجال العلوم يمكن أن نسجل عن الميزوبوتامين ما يلي:

– اكتشاف الكتابة المسمارية.

- نظام تقويم دقيق ناتج عن بعض الضرورات الدينية.
- تنظيم الطب خاصة مع حمورابي وإن بقي مرتبطا بالدين فالطبيب مثلا: يعاقب إذا أخطأ وقد يصل إلى حد القتل أو نزع اليد.[1]

ج- الحضارة الصينية: مع مطلع القرن الخامس قبل الميلاد بدأ الفكر الاجتماعي الصيني يشهد اتجاهات متباينة، حيث يمكننا التمييز بين مجموعة منها ولا شك أن خصوبة وثراء الفكر الاجتماعي القديم قد ارتبط بفترة من الاضطرابات الاجتماعية والعنف السياسي، مما أسهم في ظهور محاولات فكرية حاولت فهم التحولات والتغيرات التي مر بها المجتمع الصيني وقتئذ.[2]

تبلور إسهامات الفكر الاجتماعي الصيني في الأفكار والحكم الاجتماعية التي صاغها فيلسوفها ومفكرها القديم كونفوشيوس (551-449 ق.م) والذي عبر عن تصوراته على أساس أخلاقي مميز ووضع بدوره المعالم الأولى للفلسفة الاجتماعية التي عرفت باسمه، وتتضح معالم هذه الفلسفة في تحديدها مجموعة النظم الاجتماعية ونوعية العلاقات والمعاملات التي يجب أن يتبعها الناس على أساس مجموعة من القيم الأخلاقية المثالية.

وهناك من يعتبر تعاليم كونفوشيوس مجموعة من القوانين الإلهية التي تركز على تقديم نوعية من العلاقات والروابط الاجتماعية ذات الصلة القوية والتي ينبغي أن تدعم بواسطة كل من الأفراد العاديين أو الحكام وأصحاب السلطة، ومن ثم جاءت هذه التعاليم لتشكل العلاقات الاجتماعية على أساس وضعي، ولكنها تصطبغ بطابع إلهي، حيث كان يعتقد الصينيون القدماء أن هذه القوانين والعلاقات الاجتماعية والمثل الأخلاقية التي ترتبط بها والطاقة والخضوع والامتثال لها بمثابة طاعة الإله الأعظم الأوحد إله السماء.

كما جاءت أنماط الفكر الاجتماعي الصيني القديم لتحدد معالم العلاقات الاجتماعية والروابط الأخلاقية بداية من المؤسسات التربوية والاجتماعية التقليدية بدءا من الأسرة وحتى المؤسسات العامة للدولة، حيث تعتبر طاعة الابن لأبيه كنوع من طاعة الإله، وهذا ما تميزت به أيضا العلاقة المتبادلة بين الزوجين، ولقد أثرت هذه التعاليم والمثل الأخلاقية في الربط بين الأفراد والجماعات والنظم والبناءات الاجتماعية التي يعيشون فيها، كما تعد نوع من الالتزام الذي يجب أن يحترمه المجتمع ككل، ويجب أن يكون لها صفة الالزام والإجبار والطاعة والخضوع والامتثال، وغيرها من الصفات التي تؤدي إلى استمراريتها، وخاصة أنها تؤدي إلى قيام مجتمع واستمراريته ووجوده.

كما ربطت التعاليم الأخلاقية المثالية في الفكر الصيني بين التربية والأخلاق والتعليم وهذا ما ظهر في تصورات كونفوشيوس حول تعليم النشء وكيفية وضع المقررات والمناهج الدراسية، التي تؤكد على أهمية التعرف على آراء الطلاب واستعداداتهم وميولهم ورغباتهم في التعليم واكتساب الخبرات، كما جاءت هذه المناهج لتؤكد على أهمية النظام السياسي الموجود، وضرورة احترام الحكام لاسيما أنهم موظفون من قبل الله على الأرض، ولذا وجبت الطاعة والامتثال لأوامرهم وأحكامهم، كما عكس النظام الاقتصادي والطبقي في المجتمع نوعية العلاقات الاقتصادية والسياسية، وخاصة أن نوعية البناء الاجتماعي في الصين كان يقوم على أساس هرمي، ولكل طبقة حقوقها والتزاماتها تجاه الطبقات الأخرى في المجتمع.[1]

د- الحضارة الهندية:

---

[1] خواجة عبد العزيز: أساسيات في علم الاجتماع، دار نزهة الألباب للنشر والتوزيع، غرداية (الجزائر)، 2012، ص ص10-20.

[2] عزة أحمد صيام: تاريخ الفكر الاجتماعي، منشورات جامعة بنها (مصر)، 2012، ص5.

[1] عبد الله محمد عبد الرحمان: علم الاجتماع، النشأة والتطور، مرجع سابق، ص ص16-17.

ترك الهنود القدامى فكرا اجتماعيا خصبا وإن كان يختلف في ملامحه العامة عن الفكر الاجتماعي الصيني، فقد ارتبط الفكر الاجتماعي الهندي بمجموعة من القيم الروحية الدينية التي تبلورت في ديانات أرضية مثل ديانة (مانو) وقوانينها المقدسة ثم تعاليم (بودا) التي لا تزال تشكل طبيعة الحياة والعلاقات الاجتماعية في الهند حتى الوقت الحاضر، ولقد جاءت هذه الديانات والتعاليم بمجموعة من النظريات التي تنبذ القيم المادية والفردية، ولتؤكد على أهمية القيم الروحية والجماعية، ولذا قامت نوعية الحياة الاجتماعية والعلاقات والمعاملات التي ارتبطت بها لتؤكد على أهمية وضرورة إتباع الطبقة الدينية العليا في المجتمع وهي طبق (البراهما).

ومن ثم جاءت طبقة البراهما في أعلى الهرم الطبقي في المجتمع الهندي والتي لها تخضع الطبقات الاجتماعية الأخرى، باعتبارها طبقة مقدسة، كما يجب عدم الاختلاط بهذه الطبقة أو تدنيسها سواء عن طريق الحراك الاجتماعي أو نظم الزواج التقليدية أو غيرها من الوسائل الأخرى، كما يجب بين أبناء هذه الطبقة ذات الطابع المقدس أن تحافظ على نقائها الطبقي والديني، وضرورة توريث خصائصها وصفاتها إلى أبناء طبقتها فقط دون الطبقات الأخرى وأفرادها، ولذا نرى كثير من مؤرخي علم الاجتماع أو الفكر الاجتماعي يصفون التنظيم الاجتماعي الهندي القديم بالتنظيم الجامد الذي يقوم على المغالاة وتقديس طبقة اجتماعية والسعي إلى التفرقة بينها وبين الطبقات الاجتماعية الأخرى، الأمر الذي جعل التنظيم الاجتماعي الهندي القديم بعيد كلية عن تقديم نظريات سياسية أو اقتصادية أو دينية ترقى إلى مستوى التقدم الذي وصل إليه التنظيم الاجتماعي والاقتصادي كما وصف على سبيل المثال الحضارة المصرية القديمة.[2]

مما سبق ومن خلال عرض جهود الإنسان في بناء المعرفة بأوجهها وماديتها على مر حضارات الشرق القديم يقدم عاطف محمد غيث خصائص الفكر الاجتماعي في الشرق القديم قبل ظهور علم الاجتماع من منظور سوسيولوجي في ما يلي:

– لم يكن إذا منظم؛ وغير نابع عن دراسة مقصورة لذاتها، وإنما كان صدى للظروف الاجتماعية والحكمة السائدة، ولهذا يعبر عن الفرد أكثر مما يعبر عن الجماعة.

– تدور أغلب أجزاء النظرية الاجتماعية حول الأهداف النفعية العاجلة، ولذلك تميز التفكير الاجتماعي بالنصائح وبيان طرق النجاح في الحياة ومعاملة الناس.

– غياب معاني التقدم والتغيير الاجتماعي لدى المفكرين والتفسير الاجتماعي كان يدور في حلقة مفرغة قاعدتها القوى الخارجية التي لا سبيل إلى السيطرة عليها.

– لم يدرك المفكرون نتائج صراع القوى الاجتماعية ووقوف بعضها موقف المتسلط على بقية أعضاء المجتمع وأثر ذلك على طابع التنظيم الاجتماعي.[3]

لذلك كانت تدور معظم تصورات و أنماط تفكير شعوب هذه الحضارات حول الفكر الأسطوري أو الغيبي المرحلة التي تليها هي نمط الفكر ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقي) وتشمل المعرفة العقلية التي تقوم على التأمل والحدس والخيال[1] ويمثل هذه المرحلة الفكر اليوناني والروماني الذي يقوم على انجازات الفكر البشري السابقة في الحضارات المصرية والصينية وغيرها وليس صحيحا أن يكون هذا الفكر قد أنتج ذاته بمعزل عن الآخرين.

2– الحضارة الغربية: يعتبر تاريخ الحضارة الغربية متقدم، مقارنة بالحضارات الشرقية، وهو حصيلة إفرازات سابقة وتأثير مباشر وغير مباشر بالحضارات السابقة في مناحي الحياة المختلفة، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود خصوصيات بارزة تميزها

---

[2] عبد الهادي محمد والي: تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية (مصر)، 1998، ص27.

[3] محمد عاطف عيث: دراسات في التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دار النهضة العربية القاهرة (مصر)، 1975، ص ص3-4.

[1] إبراهيم عيسى عثمان: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 2007، ص13.

عن غيرها، وتقبع في مقدمة الحضارات الغربية كل من الحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية، وما تحملانه من إرث ثقيل ما تزال بعض مظاهره باقية إلى اليوم في مجالات عدة.

أ- الحضارة الإغريقية:

تمثل الفكر الاجتماعي اليوناني خلال القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد تحولا هاما في مسار الفكر الاجتماعي العالمي، فلقد شكل هذا الفكر نقل إذا ما قورن بالفكر الاجتماعي لحضارات الشرق القديم (الصيني والهندي والمصريين والبابليين).

إن الحياة الفكرية عند الإغريق قد بلغت ذروتها بظهور فيلسوفين هامين هما: أفلاطون (427-347 ق.م) وأرسطو (3884-322 ق.م) وما يزال كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسية لأرسطو من المصادر الهامة لكثير من التيارات الفكرية التي شهدها العالم خلال القرون التالية.

ولقد درج علماء التاريخ للبداية الحقيقية للفكر الاجتماعي بظهور الفكر اليوناني من منطلق أنه أول فكر مكتوب ومنظم من ناحية، وإنه يتضمن معظم الاتجاهات التي دار فيها الفكر الاجتماعي فيما بعد، فمن المادية التجريبية إلى المثالية ومن أمور الحياة إلى نظم الحكم والسياسة، ومن الاتجاهات الواقعية إلى الاتجاهات الأخلاقية والمثالية، كل ذلك وحى للمفكرين إلى النظر إليه كبداية ملائمة لدراسة الفكر الاجتماعي، ومع أننا لا ننكر هذا الفضل، أي فضل الفكر اليوناني إلا أنه من الخطأ أن نعط الطرف على الفكر السابق عسر حقه، فلقد كان الفكر الاجتماعي في حضارات الشرق القديم، فكرا رائدا لمقاييس العصور التي ظهر فيها والتي كانت موكلة في القدم والتخلف.

ولم يلح فجر علم الاجتماع إلا حينما تجردت التأملات الاجتماعية ولو جزئيا عند بزوغ أول خيط من الروابط الدينية، وكان الذي يربط المدن الإغريقية ويوحد ما بينها تلك المعتقدات الدينية برغم اختلاف المنظمات السياسية فيما بينها، وقد أتاح وجود المجتمعات المختلفة في المدن الإغريقية ظهور الرواد الأوائل لعلم الاجتماع.

إن الأفكار الفلسفية لحضارات الشرق القديم كانت أشبه بتأملات فلسفية ينقصها النزعة التحليلية كما أنها كانت مفككة غير مرتبطة بنظام معين، بعكس فلاسفة اليونان الذين استطاعوا فيما بعد أن ينظموا معا وفهم تنظيما منهجيا موضوعيا، فبدأ تفوقهم على فلاسفة وحكماء الشرق القديم.

لذلك سنلقي نظرة على الموضوعات الاجتماعية التي خلفها مفكران كبيران من اليونان كانت لأرائهما وزن كبير، وتأثرت بهما مجتمعات غربية ومجتمعات إسلامية هذان المفكران هما أفلاطون وأرسطو.

(1) **أفلاطون: (427-347 ق.م):** لخص أفلاطون معظم أفكاره الاجتماعية في كتابه المسمى "الجمهورية"، فقد استهل أرائه عن ماهية العدل، واعتقد أن أحسن تعريف لحقيقة العدل يكون بتحليل المجتمع وتحليل النفس البشرية ولكنه بدلا من أن يبدأ بالفرد وينتقل إلى المجتمع، نجده يقوم بتحليل المجتمع البشري أولا وحجته في ذلك أننا نرى الفرد في المجتمع على صورة أكبر وأوضح ففي المجتمع بطبقاته وتجارته وصناعته وأنظمته العسكرية والسياسية تظهر العناصر الخفية للطبيعة الإنسانية، وتتخذ شكلا أكثر وضوحا عنها في الفرد نفسه.[1]

(2) **أرسطو: (384-322 ق.م):** هو تلميذ لأفلاطون، وقد جاءت كتاباته في الفلسفة الاجتماعية أكثر واقعية ووضعية، وأدق بطبعة من أستاذه، بل يرى معظم آرائه الفلسفية والاجتماعية كتابه " السياسة".

من أهم الأفكار الاجتماعية الجديدة التي أوردها أرسطو قوله بأن الإنسان مدني بطبعه وأنه يستحيل على الإنسان أن يحيا ويعيش منفصلا عن المجتمع، والدولة وجدت لتنظيم حياة الناس في المجتمع وتشرف عليهم، وتطبيق التشريعات بهدف تحقيق العدالة والمساواة ويصنف الحكومات إلى نوعين: حكومة صالحة وأخرى فاسدة.

---

[1] جاستون بوتول: تاريخ علم الاجتماع، ترجمة: غنيم عبدون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة (مصر)، د س، ص9.

كما نجده يحلل المجتمع بداية من تحديد المجموعات الأساسية والضرورية المكونة له، فالمجتمع الأول الذي تكون طبيعيا هو العائلة وهي ترتكز على التوحيد بين المرأة والرجل من جهة والعبد والسيد من جهة أخرى، وأن من صالح العائلات ومن الطبيعي أيضا أن تجتمع في قرى والتي تتجمع بدورها لتشكل فيما بينها مدنا، فالإنسان موجه في النهاية للعيش داخل مجتمع لأنه بالطبع "حيوان اجتماعي".

بقيت هذه الفكرة التي حددها أرسطو عن أسبقية المجتمع على الفرد والكل على الجزء، ميزة تشكلت حولها التفسيرات العضوية والكلامية في علم الاجتماع المعاصر.

وهكذا نجد أرسطو قد لمس أدق مسائل علم الاجتماع وعالجها منهجيا، إلا أنه لم يدرس هذه المسائل بصورة مستقلة، ولكنه كان يدرسها على اعتبار أنها مدخل لنظرية الدولة، ولذلك يعتبر أرسطو أول من توصل إلى ضرورة قيام علم السياسة، رغم أنه بشر بموضوعات في صميم علم الاجتماع.[2]

لقد كان أفلاطون وأرسطو أول مفكرين يقدمان تحليلا منظما للحياة الاجتماعية، وعلى الرغم من وجود بعض التشابه في أفكارهما، إلا أنهما يختلفان اختلافا أساسيا في كثير من القضايا المتصلة بطبيعة الحياة الاجتماعية، ومع ذلك فإن المكانة المتميزة التي احتلها أفلاطون وأرسطو داخل تاريخ الفكر الاجتماعي يجب أن لا تمنعنا من القول بأن ما قدماه من فكر اجتماعي كان نتاجا لنظريات وأراء وتصورات قدمها أسلافهم فمن قبل أفلاطون أتى سقراط والسفسطائيون، ومن قبل سقراط والسفسطائيون أتى مفكرون وفلاسفة آخرون قدموا إسهامات فكرية متفرقة كان لها أكبر الأثر على تصورات كل من أفلاطون وأرسطو في المجال الاجتماعي.

لقد لعب السفسطائيون دورا هاما في تطور الفكر الاجتماعي الإغريقي الذي تمثل بالدرجة الأولى في ريادته للحركة النقدية وتثقيف الشباب واكتسابهم أصول الجدل والحوار الفكري، ولعل أهم ما انطوى عليه فكر السفسطائيين من أفكار اجتماعية هو تأكيدهم لمبدأ نسبية النظم والتقاليد والعادات والأديان، فكل نظام و تقليد هو حق وخير في إطار المجتمع الذي يطبق فيه فقط، ولكنه ليس حقا أو خيريا النسبة للمجتمعات الأخرى.

ويمكن القول أن الفلسفة السفسطائية قد حملت بين طياتها تحليلا اجتماعيا واقعيا نقديا يناهض التصورات الميتافيزيقية المجردة، ويطالب بنظرة تلتزم بالواقع الاجتماعي، ويمكن أن نستشهد على ذلك بآراء واحد من أشهر السفسطائيين هو بروتاجوراس Brotorgras (500-430 ق.م) فقد أشار أن الإنسان هو معيار الحكم على الأشياء.[1]

من مجمل ما سبق يمكننا القول أن فلاسفة ومفكري الحضارة الإغريقية (السفسطائيون، أفلاطون أرسطو) قد طرحوا طائفة كبيرة من التصورات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والأخلاقية ما تزال مطروحة على الفكر الاجتماعي المعاصر حتى الآن ففي المجال الاقتصادي أشار أرسطو إلى الصراع من أجل الملكية والاستحواذ ووسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل وعلاقة أنماط الإنتاج بأساليب الحياة ودور النقود في الحياة الاجتماعية، وفي المجال العمراني والسكان يذهب أفلاطون إلى أن المدينة يجب أن تكون صغيرة الحجم مما يتيح فرصا أفضل للإدارة السياسية الناجحة، ولقد وصل أفلاطون إلى حد تقدير حجم سكان المدينة المثالية يجب أن لا تظم كثر من 5040 مواطنا و إذا أضفنا غير المواطنين والنساء والأطفال والعبيد والأجانب وصل هذا العدد إلى 60000 نسمة ولقد كان أفلاطون واعيا بمخاطر نمو حجم المدينة وانعكاس ذلك على تنظيمها الاجتماعي.[2]

وأخيرا ربط أرسطو بين الجوانب الأخلاقية والجوانب التربوية ذلك أن الفضائل الأخلاقية لا تتحقق إلا من خلال الممارسة وبغض النظر عن المضمون الأيديولوجي لتصورات أرسطو التربوية، فإنه قد تمكن بنجاح في وضع التربية في إطارها الاجتماعي والسياسي والأخلاقي مستبعدا بذلك عن النظرة السلوكية الضيقة التي تبناها بعد ذلك علماء التربية وعلماء النفس المعاصرون.

---

[2] أحمد رأفت عبد الجواد: مبادئ علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة (مصر). 1983، ص8.

(1) محمد علي محمد: تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعة الإسكندرية (مصر)، 1985، ص22.

(2) السيد الحسيني: المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعة الإسكندرية (مصر)، 1995، ص22.

ب- الحضارة الرومانية: romani

إذا كان الفكر الفلسفي سمة الحضارة الإغريقية، فإن التنظيم والقانون صبغ الحضارة الرومانية وميز فكرها بالطابع العلمي، فقد أتاحت لها الفتوحات الواسعة فرصة الإطلاع على عادات الشعوب الأخرى، ولو لم تقدم روما شيئا جديدا- كما يقول جاستون بوتول- على المستوى الاجتماعي إلا أنها تبقى الواضعة الحقيقية للقانون الحديث والتي عرفت كيف تستخلص منه عبر عدة قرون المبادئ الأساسية، وبذلك أمكن الانتقال من ضيف القانون القديم وشكلياته إلى وضع القانون الطبيعي.(3)

وهو ما أنتج عن ذلك تطور بطيء للحالة العامة للإنسانية والعلاقات الاجتماعية، وتشكل هذه المفاهيم وهذه المعتقدات التي توجه هذه العلاقات ما يمكن أن يسمى بعلم الاجتماع الحقيقي.(4)

يقول لويس فيبر Lewis Weber :" إن تجرد الرومان العلمي لا يواتيه غير أهل الصين، فقد أخرج الرومان مثلهم في ذلك مثل أهل الصين روادا مبرزين في علم الأخلاق مثل: شيشرون Cicéron وسينيك Sénèque.

كانت روما الإمبريالية هي الواضعة الحقيقية للقانون الحديث والتي عرفت أن تستخلص منه عبر عدة قرون المبادئ الأساسية، وبذلك أمكن الانتقال من ضيق القانون وشكلياته إلى وضع القانون الطبيعي.

ويمتاز التفكير الاجتماعي الروماني بطابعه العلمي والشيء الغريب حقا هو أن الفكرة الاجتماعية للإمبراطورية العظيمة في الطرف الآخر من العالم تتشابه مع الفكرة الرومانية وزيادة على ذلك فإن خصائصها مماثلة لها كل المماثلة.

نلمس مما سبق أن مفكري الرومان قد اهتموا أساسا بالجانب الأخلاقي للحياة الاجتماعية وقد كان ذلك في الحقيقة رد فعل لكثير من التيارات التي سادت الإمبراطورية الرومانية والتي تضمنت انحلالا خلقيا ظاهرا وتفككا في كثير من جوانب الحياة في المجتمع، ولقد كان تركيز الفلسفة الرواقية على الجوانب الأخلاقية هو العامل الدافع لاعتبارها مناقشة المسائل الميتافيزيقية وبعدها عن الجدل في النواحي السياسية والدينية باستثناء ما يتصل منها بمسائل إنسانية مثل فكرة القانون العام والمساواة ومقارنة الرد.

وقد وجدت الحضارة الرومانية في سنواتها الأخيرة في المذهب الرواقي مبادئ إيجابية في مواجهتها وصلت إليه أحوالها من تفتح وانحلال ولكن كانت الحضارة الرومانية لم تشهد ازدهارا في مجالات الفلسفة فإنها قد عوضت ذلك بما حققته من تطور في الجوانب التشريعية والقانونية وقد أدى ذلك إلى الاستعانة بالأخلاق والمثل الإنسانية التي طورتها الرواقية كأحسن ما يكون.

3- الحضارة الإسلامية:

إذا كان تاريخ الحضارات السابقة يقوم على دعامة واحدة سواء في بعدها الروحي الخالص الذي يقدس الماورائي على المادي أو في بعدها المادي التنظيمي الذي لا يعترف بالإنسان إلا باعتباره أداة للتنظيم والتنفيذ، فإن الحضارة الإسلامية حاولت جاهدة أن تتموقع بينهما، فأهم خاصية تميزها هي "التوازن و الاتزان" أو "الوسطية" كما وصفها النص القرآني على أنها "الأمة الوسط" فقد جاء الإسلام كشريعة ودين له فكر اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي مميز، وهذه السمة المميزة للأديان السماوية التي تهدف إلى تغيير نمط التفكير البشري لما فيه الخير والصلاح، فلقد ركز الإسلام كدين سماوي على ضرورة تغيير العادات والتقاليد والنظم الجاهلية البالية، ويطرح للعقل البشري البدائل الممهدة لطريق التخلص هذا العقل من الشرور والآثام، وهذا بالفعل ما ظهر بوضوح في طبيعة الدين الإسلامي وتركيزه على وضع أسس جديدة للنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تقوم على المساواة والتكفل والعدالة تحديد الحقوق والواجبات ووضع نظم محددة لأساليب العقاب والجزاء ونقاش قضايا هامة تشغيل اهتمامات العقل البشري مثل : الفقر المساواة، العدالة، التكافل الاجتماعي، الملكية العامة والخاصة، العمل والإنتاج، توزيع الثروة، الحرية وغيرها من القضايا الهامة.

---

(3) عبد العزيز خواجة: أساسيات في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص 66-67.

(4) جاسون بوتول: تاريخ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص17 -18.

ويمكن الإثارة فيما يلي إلى بعض آراء المفكرين المسلمين الذين ظهروا خاصة في العصور الوسطى وكيف أسهمت هذه الأفكار في ازدهار الحضارة الإسلامية ووضع الأسس الأولى لظهور الحضارة الغربية خلال العصر الحديث، وسنخص بالذكر في هذا المبحث كل من المفكرين أبو الفارابي والمقريزي وكيف كان تصورهما للحياة الاجتماعية، أما العلامة ابن خلدون فنتركه لمحاور مقبلة خاصة في رواد علم الاجتماع.

أ- أبو نصر الفرابي (874-950م): تعكس أراء الفارابي كأحد مفكري وفلاسفة الحضارة الإسلامية التي ظهرت خلال القرنيين التاسع والعاشر الميلاديين لنوعية الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت توجد خلال هذه الفترة والتي يصعب الوصول إلى تحليلات فكرية واجتماعية حول الواقع الاجتماعي في الدولة الإسلامية، علاوة أن التصورات الفارابي امتزجت بصورة نسبية بالبعد الواقعي و الفلسفي الخيالي في نفس الوقت، وهذا ما ظهر في كتابه المميز عن (المدينة الفاضلة) حيث اهتم فيه بالنواحي الاجتماعية وحاجة الإنسان إلى العيش في جماعات مع الآخرين، وإلى ضرورة التعاون لسد وإشباع حاجاته من أجل العيش والحياة.

كما تمكن أهمية تحليلات الفارابي لأنها سبقت العديد من تحليلات علماء العالم الغربي في نفس الوقت لدراستها العديد من القضايا والمشكلات التي تهتم بمعالجتها الكثير من فروع علم الاجتماع ومجالاته المختلفة، فلقد اهتم على سبيل المثال الأكثر بدراسة طبيعة وأنواع المجتمعات الإنسانية والتي قسمها إلى فئتين كبيرتين وأسماهما في النوع الأول منها بالمجتمعات الكاملة والنوع الثاني بالمجتمعات غير الكاملة، كما ناقش نوعية هذه المجتمعات والتي حددها في ثلاث صور وهي: المجتمع العالي والوسيط، والصغير، كما حلل أيضا طبيعة الطبقات الاجتماعية ونوعية المهن ونظم القيادة الرئيسية وحكم وغير ذلك من قضايا يهتم بمعالجتها الآن علماء السياسة، والاجتماع السياسي والاقتصادي والريفي والحضري، وهذا ما جعل هذه الكتابات تصطبغ بالصيغة الاجتماعية المميزة التي برزت في هذه الفترة من التاريخ.[1]

ب- المقريزي: (1364-1442م) توضح طبيعة الحياة الاجتماعية والفكرية والمهنية لأحمد المقريزي، عن مدى اهتمامه بتحليل الواقع السياسي والاقتصادي للعالم العربي بصورة عامة وللمجتمع المصري بصورة خاصة، كما تميزت مؤلفاته بالطابع الموسوي والواقعي وحصرت هذه المؤلفات في كتب لا تزال لها صداها العلمي حتى الوقت الراهن، مثل مؤلفه: (إغاثة الأمة تكشف الغمة) وأيضا كتاباته التاريخية أو ما يعرف بـ (الخطط المقريزية) كما جاءت دراسته لتاريخ المجاعات في مصر لتوضح لنا عن أسباب حدوث هذه المشكلة أو الظاهرة الاجتماعية، وانعكاساتها على الفئات والطبقات الاجتماعية وتأثيرها على العلاقات والدخل والثروة والفقر.[1]

علاوة على ذلك ناقش المقريزي مجموعة العوامل السياسية والاقتصادية التي ترتبط أيضا بالعوامل الاجتماعية والتي كانت موجودة بالفعل في العالم العربي، فلقد ناقش طبيعة التنظيم السياسي والإداري للدولة، ونظم الإدارة والضرائب وطبيعة الفساد الإداري والرشوة وغيرها، كما جعل طبيعة الأنشطة الزراعية والسياسات النقدية وطبيعة الطبقات والفئات الاجتماعية والمهنية وطبيعة الدخل والمهن وأسلوب الحياة والمعيشة وغيرها من القضايا التي استند في تحليل مادتها العلمية على ما يعرف بالأسلوب الأنتروبولوجي والسوسيولوجي والتاريخي في نفس الوقت.

- **الخصائص العامة للفكر الاجتماعي للحضارات:** من خلال تناولنا للفكر الاجتماعي الذي تميز مختلف الحضارات البشرية -مشرقها ومغربها- لا بد من الإشارة في النهاية إلى الخصائص العامة التي تطبعها، وقد تكون بعض هذه الخصائص أقرب إلى قانون اجتماعي يحكمها، وأهم هذه الخصائص:

---

[1] عبد الله عبد الرحمان: علم الاجتماع النشأة والتطور، مرجع سابق، ص ص22-23.

[1] عبد الله محمد عبد الرحمان: علم الاجتماع الاقتصادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (مصر)، 1994، ص56.

- الحضارة نظام اجتماعي يعكس اللحظة التاريخية التي يعيشها شعب معين، ودرجة تقدم أفراده ومؤسساتهم.
- للحضارة عناصر تشكلها وتتساند فيما بينها، من نظام سياسي وقضائي وفكري وتعليمي وتجاري واقتصادي وغيرها وتكون عموما في نفس الدرجة من التطور أو متقاربة على الأقل (التباين الشديد بينها يولد حالة التخلف).
- من وراء كل حضارة عوامل مساعدة في نهضتها قد تكون جيولوجية أو مناخية أو اقتصادية أو عمرانية أو ديمقراطية أو سياسية ويبقى الجانب السوسيوثقافي العامل الأقوى خاصة ما تعلق بالبنية النفسية والاجتماعية للفرد والمجتمع.
- كما أن لكل حضارة عوامل لنهضتها لها أيضا عوامل تعمل على سقوطها وغالبا ما تكون عوامل النهضة هي نفسها عوامل السقوط لكن يبقى الجانب السياسي والاقتصادي أهم عوامل السقوط.
- بين الحضارات احتكاكات مستمرة وتراكمات تنتقل من السابقة إلى اللاحقة ولا وجود لحضارة خالصة من التأثير والتأثر بالحضارات الأخرى سواء المجاورة لها أو السائدة في حقبة تاريخية معينة.
- لكل حضارة زمنية أو تاريخية معينة غالبا ما لا تقل عن القرن ولا تزيد عن عشر قرون، من بداية تشكلها إلى الأنفاس الأخيرة من وجودها، وتنقسم هذه اللحظة إلى فترة نشأة وفترة انحطاط مع وجود لحظات وسيطة تتقدم فيها أو تتأخر.
- لكل حضارة "فكرة موجهة" يعمل منظروها على ترسيخها على شكل أنظمة وتصورات والبدايات الأولى لسقوط الحضارة يبدأ بانحراف هذه الفكرة الرئيسية.
- لكل حضارة خصوصيتها التي تميزها عن غيرها من الحضارات الأخرى.
- لكل حضارة طبقا اجتماعية تشكلها.
- تقوم الحضارة على أسس عرقية حقيقية أو متوهمة.
- أغلب الحضارات قامت على العبودية أو التوسع على حساب حضارات أخرى.
- الدين عنصر مفعل للحضارات، وإذا تقاطع مع السلطة السياسية أصبح أداة للضبط الاجتماعي.
- نشأت أغلب الحضارات على ضفاف الأنهار أو المناطق الساحلية وهي المورد والمصدر الرئيسي لاقتصادها وتجارتها بالخصوص ولتبادلاتها الثقافية مع الحضارات الأخرى (وحتى بعض الحضارات التي نشأت في الصحراء سرعان ما امتدت لتسيطر على المناطق الساحلية أو النهرية).

4- العصر الحديث:

أ- **عصر النهضة (الإصلاح)**: نعني بعصر النهضة؛ الحركة الواسعة النطاق التي قامت على تجديد الحضارة الأوروبية الغربية من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر وبهذه الحركة حل العالم الحديث محل عالم القرون الوسطى، ونذكر أن التطور الذي ارتسم هذا العصر تناول الحياة المادية والحياة الاجتماعية والحياة الفكرية.

والظاهرة الأساسية لهذا العصر أن المثقفين فيه والفلاسفة والكتاب والفنانين والعلماء لم تنقطع صلتهم المباشرة بمفكري اليونان وروما، ولكن هناك حقيقة لها من النتائج ما لا يعد ولا يحصى، ففي القرون الوسطى لم تفترق عقلية المفكرين عن عقلية عامة الشعب، أعني أنهما لم يفترقا كلا عن الأخر في المعتقدات والاتجاهات ولكن مع عصر النهضة خرجت الحياة الفكرية عن الإطار الشعبي، فقد تزامنت مع هذا العصر جملة من الاكتشافات والاختراعات التي كان لها أثر كبير في انطلاق "الروح الجديدة"، وقد فجر التدفق العلمي مع رموز النهضة أمثال: "ليوناردو ديفانشي Léonardo Devinci" (1452-1514) و"نيكولاس كوبرنيك Nicolas Copernic" (1473-1542م) و "غاليليو غاليلي Galiléo Galilé" (1564-1642م) الكثير من التساؤلات الاجتماعية، لأن البحث في فهم الطبيعة أو المجتمع كان يعتبر حينها في أحسن الأحوال تدنيسا للمقدسات، فإذا كان

نظام الكون والمجتمع يخضع للإرادة الإلهية فإن كل محاولة علمية (الفهم من أجل التغيير والتحكم) لفهمه وتفسيره تعتبر رفضا للعقيدة الدينية وهو السبب الذي جعل الكنيسة تحكم على غاليلي بالإعدام.

أما الإصلاح في هذا العصر –النهضة- فقد بدأ في أوروبا على يد (مارتن لوثر Martin Luther 1483-1536) الذي أعلن ضرورة فضح رشاوى الكنيسة ورفض صكوك الغفران التي تقدمها مقابل أموال طائلة، لكن جون كالفن jean Calvin (1509-1564) كان أكثر تجديدا لما دافع عن استثمار الأموال الناتجة عن التقشف وبساطة الحياة والادخار والأرباح في أنشطة اقتصادية معطيا قيمة دينية للعمل وداعيا إلى روح المؤسسة التي تسمح بالعمل وإرضاء الرب، لهذا اعتبر ماكس فيبر M. Weber المذاهب الكلفانية نسبة لجون كلفان النموذج المثالي للروح الجديدة التي قلبت سلم القيم المتعلق بالمجتمع التقليدي والتي فرضت قيم الرأسمالية ومن أبرز الجوانب الإصلاحية للنهضة الأوروبية ما سنقدمه في شكل نقاط كما يلي:

- **فنية :** إعادة النظر في مصادر الفن الكلاسيكي.
- **سياسية:** انفصال السياسي عن الديني لدى "نيكولو ميكيافيلي Nicolo Machiavel" (1469-1527) ونظرية الاستبداد عند "جون بودان Jean Bodin " (1530-1596).
- **اجتماعية:** وذلك مع الأيتوبيا الجماعية، كما فعل " توماس كومبانيلا Campanella Tomas" (1568-1639) في مدينة الشمس La cité du Soleil أو "توماس مور Thomas more" (1480-1535) L'utopie : qui n'est d'aucun lieu ".

وبدأت تتغير السلوكات والمواقف الاجتماعية تدريجيا في هذه الفترة نحو فكرة " المعرفة" خاصة حتى أصبح "الموقف العلمي" والمسمى بالتفكير الكوبرنيكي حينها (للحفاظ على تسمية ذلك العصر هو الخاصية الأساسية المميزة للإنسان العصر – الإصلاح والنهضة.

ب- عصر العقلانية والفردانية: يعتبر هذان القرنان (السادس عشر والسابع عشر) في تاريخ الفكر الغربي وعلى المستوى العلمي والفني "العصر الكلاسيكي" و "عصر الأنوار"، فقد كانت بنية المجتمع التقليدي جماعية في تنظيمها ودينية في نمط تفكيرها، ويشكل قبول نظام الأسلاف مبدأ أساسيا لا رجعة فيه، فعلى المستوى المحلي كانت القرية الجماعة القاعدية للمجتمع، تعود فيه السلطة للقدماء والأكبر سنا، أما على المستوى العام فكان المجتمع يستند على تقسيم الأقاليم والممالك ويسير من قبل مؤسسات العهد القديم خاصة النبلاء والملوك أو المؤسسات الدينية كالإكليريوس ورجال الدين المفوضين من قبل الإله نفسه، وقد ثم زعزعة هذا النظام على عدة مستويات أهمها:

- علميا وثقافيا على يد مفكري الأنوار (التنوير).
- سياسيا عن طريق الثورة الفرنسية.
- اقتصاديا نتيجة الثورة الصناعية.

فقد أعطى في مجال التفكير كل من "فرانسيس بيكون Francis Bicoun " (1561-1626) و"رونيه ديكارت René Descartes" (1596-1650) الأولوية للعقل أو ما يسمى اليوم ب"الروح العلمية" معتقدين أن المعرفة هي الوسيلة التي يصبح الإنسان من خلالها سيدا على الطبيعة فبالنسبة لديكارت يعتبر أن الإنسان وحده مصدر المعرفة، ولا يحتاج للرجوع إلى مصادر إلهية لاكتسابها، ويقترح "سبينوزا Spinoza Bruch " (1632-1677) قطيعة راديكالية بين الإيمان والعقل.

تقع مشاركة " الأنوار" في مقدمة هذا العصر، لأنها تتضمن رفضا لدعامتين داخل المجتمع: سيطرة الجماعي على الفردي من جهة، والدين على العقل من جهة أخرى، فقد وضع مفكرو الأنوار العقل فوق كل اعتبار والإنسان في محور عملية المعرفة، كما يقول "إنمانويل كانط Emmanuel Kant " (1724-1804): "فلتكن لك الشجاعة للاستعانة بفهمك الخاص، هذه هي عملية الأنوار".

وقد ترجم هذا الميل إلى العلم والتقنية في عمل جماعي تاريخي سمي "الموسوعة Encyclopédie "(1751-1773) جمع بين طياته مختلف العلوم والفنون والحرف، تحت إشراف "ديدوروDiderot Denis" (1713-1784) و"ألمبير Jean le rond

d'Alembert" (1717-1783) و شارك فيه نخبة من المؤلفين الكبار أمثال: "فولتر Voltaire" (1694-1778) و"مونتيسكيو" و"روسو Rousseau" و"بوفون Buffon " وغيرهم.

وقد عولجت فيه الموضوعات الاجتماعية وفق نموذج العلوم الطبيعية باعتبار الحياة الاجتماعية ميكانيزما يخضع للفهم الميكانيكي للظواهر كما هو في العلوم الطبيعية، هيأ كل ذلك الأرضية لظهور "العلماوية Scientisme" باعتبارها اعتقاد يرى أحقية العلم في كل التساؤلات الخاصة بالمجتمع وكل مسائله التطبيقية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، كما يعتبر العلم والمعرفة الوحيدة التي تملك المشروعية والحقيقة ووضعية القرن التاسع عشر.

ج- مدرسة العقد الاجتماعي: نشأت نظرية العقد الاجتماعي في القرن السابع عشر والثامن عشر، وهي تبحث في علاقة الأفراد مجتمعهم خاصة السلطة السياسية، وقد رفض علماء هذه النظرية الأفكار الأفلاطونية والأرسطية، التي تعيد المجتمع إلى أصول إلهية أو طبيعة، ويرون بخلاف ذلك أن كل مجتمع ما هو إلا نتاج القرار الذي اتخذه الأفراد المكونين له في الانسحاب من الحالة الطبيعية والتعاون بينهم بشكل حر مشكلين بذلك اتفاقا يسمى " العقد الاجتماعي" وأهم المفكرين الأوائل اللذين أسسوا فكر العقد الاجتماعي: الاسباني "فرانسيسكو سيوراز Francisco Siavez " (1548-1647) و"ريتشارد هوكار Richard Hooker" (1554-1600) و"ألتويس Althussis" (1557-1638) وخاصة الهولندي "هيجو قروتويس Hugo Grotwis" (1583-1645) و"سمويل فون بفوندروف Samuel Von Pufendorf " (1632-1694) وحسب هؤلاء المفكرين لا يمكن اعتبار أصل المجتمع إلهيا ولا طبيعيا وإنها تنقية عقد مزدوج بين الأفراد موجه لبناء المجتمع والحكم، بموجبه يتخلى الأفراد في الحد الأول من الاتفاق عن استقلاليتهم التي كانوا عليها في الحالة الطبيعية لصالح الجماعة التي تعود لها السلطة ويتلقون بالمقابل الحماية وضمان حقوقهم الخاصة لاسيما حق الملكية، وتحول الشعب بموجب الحد الثاني من الاتفاق السلطة لقاض أو عدة قضاة يطبقونها ضمن شروط محددة.[1]

يضاف إلى هؤلاء المفكرين الأوائل مجموعة من المنظرين كذلك لهذه النظرية وسنحاول عرضهم بنوع من التفصيل كما يلي:

1- توماس هوبز: (1588-1679): تكمن أهمية تحليلات **هوبز** بأنها جاءت في مرحلة تحول أوروبا التدريجي من هيمنة السلطة الكنيسة إلى السلطة السياسية، تنتقد بشدة، فكرة الإنسان "حيوان سياسي" بمعنى أنه مزود طبيعيا العيش داخل المجتمع ويرى عكس ذلك، فعادة ما كان يكرر الحكمة التي ارتبطت به "الإنسان ذنب لأخيه الإنسان" لأن الحالة الطبيعية للإنسان هي حالة الحرب المستمرة بين كل واحد ضد كل واحد، كما اهتم بالفلسفة السياسية وحاول أن يضع بعض الخطوط المثلي للعلاقة التي يجب تحديدها بين كل من الدولة والكنيسة، كما يسعى في نفس الوقت لأن يجعل مصدر السلطة سواء كانت سياسة أم دينية، أن تكون أيضا نابعة من الأفراد الذين سوف تنطبق عليهم هذه السلطة أو المحكومين أنفسهم، وليس من فكرة التعويض الإلهي Divine right وهذا ما وضعه في كتابه المعروف Leviathan وحدد على ضوئها فكرة، ونظريته عن العقد الاجتماعي Social contracte.[2]

2- جون لوك John Locke (1632-1704): حاول "جون لوك" على منوال "توماس هوبر T.Hobbes" دراسة أصول الحكم والسلطة المدنية وغايتها انطلاقا من تحليل الحالة الطبيعية دافع "**لوك**" عن الحرب الإنجليزية الثانية (1680) وسماها "الثورة المجيدة" لأنها أرست أسس الملكية البرلمانية، بمعنى أنها حققت حقوق السيادة عن طريق الدستور، فقد وضعت مجموعة من الضمانات ضد الحكم الملكي بخاصة ما يتعلق بالسلع، وإن كان لوك يطمح في كتابه: "دراسة الحكم المدني civil Traite du gouvernent (1690) إلى إدانة الاستبدادية، فقد ناقش تصورا فلسفيا محورة الأساس هو السلطة السياسية ومنتقدا أفكار هوبز.

---

(1) عبد العزيز خواجة: علم اجتماع المعاصر، من الجذور إلى الحرب العالمية الثانية، منشورات دار نزهة الألباب، للنشر والتوزيع، غرداية (الجزائر) ج1، د س، ص ص 14-15.

(2) Elizabeth j-Wilkins : sur introduction to Sociology، Macdonald and Evans،2^{eme}edition، 1978، pp7-8.

وبخلاف **هوبز** يرى **لوك** أن الحالة الطبيعية سلم وحرية ومساواة، فهي مسيرة عن طريق الحقوق الطبيعية الفطرية والعقلية، والإنسان بطبعه مخلوق اجتماعي لأن كل فرد يحمل في داخله القانون الطبيعي الذي يتطابق مع طبيعته الإنسانية، لكن عدا وجود ما يضمن للفرد احترام الكل لهذا الحق الطبيعي، فضل الانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية التي تتضمن الحماية والأمن أكثر، ويؤكد لوك أيضا على وجوب مقاومة الشعب في حالة خيانة ثقته من قبل الحكم.[3]

3- جون جاك روسو Jean Jacques Rousseau: (1712-1778): يرى روسو أنه قبل ظهور الدولة والقانون كان الناس يعيشون "عصرا ذهبيا" من عصور التاريخ، تسود فيه المساواة التامة إلى أن ظهرت الملكية الخاصة وتفشي التفاوت بين الناس، وكان لزاما على سكان المجتمع المدني التعاقد على قيام الدولة والحق.

وقد خلص روسو من فكرته هذه إلى مجموعة من النتائج لعل أهمها: إذا كان الحكماء والمشرعون لا يكيفون قراراتهم مع رأي الشعب، فإن للشعب الحق في فك العقد المذكور، وهنا تمكن محدودة تلك النظرة ومحاولة تفسير أصل الدولة والحق بردة إلى رغبات الناس الذاتية بعيدا عن العلاقات المادية القائمة بينهم، والجدير بالذكر أن أنصار نظرية العقد الاجتماعي يؤكدون على طبيعة الملكية الخاصة وخلودها.[1]

إن الخطوط العريضة لإسهامات روسو تتمثل في كتاباته حول أصل عدم المساواة بين البشر وتصورات العقد الاجتماعي، ورأيه في السيادة والقانون والحكومة، وإذا كانت الطبيعة خلقت الناس متساويين، فإن العقد الاجتماعي يعيد الإنسان، الذي أفسدته العلوم والفنون إلى الحالة الصغرى لكي يكون الجميع سواسية وأحرار، فضلا عن ذلك فقد أرسى روسو مبدأ أساسي هام أيضا يتمثل في أن السيادة لا تتعلق بفرد أو هيئة وإنما تعود برمتها إلى فكرته عن الإرادة العامة، معلنا أن الحكومة التنفيذية ليست سوى خادمتها.

وفي كتابيه العقد الاجتماعي (1762) وأصل المبالاة الاجتماعية (1755) قدم روسو تحليلا مميزا لنشأة الملكية وعلاقتها بتقسيم العمل واللامساواة والصراع الاجتماعي كما استطاع أيضا أن يدرك تمايز المجتمع باعتبار كل عضو تتماثل فيه المصالح الفردية في إرادة عامة مشتركة، فالمجتمع في نظره نتاج لعقد أو عمل جماعي كشكل من أشكال الرابطة ينتج عنها نظاما أخلاقيا جماعيا أكثر مما ينتج عنها مجرد إرادات فردية.

4- مونتيسكيو Montesquieu (1689-1755) على غرار منظري مدرسة العقد الاجتماعي يتميز مونتيسكيو تحليلاته بالعقلانية والمنهجية، ونظرته للقيم والقوانين الخاصة بكل الشعوب، وذلك من أجل تحديد ما هو كائن ولما هو كذلك، فلأول مرة شكلت المجتمعات الإنسانية موضوع دراسة مستقلة عن السياسة والأخلاقي والديني.[2]

إن أهم ما يكسب دراسات مونتيسكيو صفة الجدية هو عنايته بتوضيح أثر النشاط الاجتماعي في حياة الإنسان فالإنسان لا يفعل ما يريد والقوانين والنظم التي يخضع لها يجب أن تحقق الانسجام فيما بينها فحسب بل يجب أن تتفق مع البنية الطبيعية والخلقية التي يعيش فيها الإنسان وهذا ما جاء في كتابه:"روح القوانين De l'esprit des lois " (1748).[3]

وبغض النظر عما يحمله كتابه "روح القوانين" من إسهامات سياسية وفلسفية فقد ساهم في المجال السوسيولوجي بأربع نقاط وهي :

- مفهوم القانون العلمي؛ فالكتاب يحتوي على إمكانية تطبيق القوانين العلمية على المجتمعات.

---

(3) عبد العزيز خواجة: علم الاجتماع المعاصر من الجذور إلى الحرب العالمية الثانية، مرجع سابق، ص ص17-18.

(1) جان جاك شوفاليب: تاريخ الفكر السياسي، من المدينة إلى الدولة القومية، تر: محمد عرب صاصيلا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، 1985، ص 282.

(2) Gilles Ferréol : Histoire de loi pensée Sociologique , A. colin, France, 1994، p7.

(3) السيد محمد بدوي: علم الاجتماع ومشكلات المجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (مصر)، 1995، ص ص97-98.

- نظرية الحكومات؛ طور مونتيسكيو نظرية للحكومات من حيث طبيعتها ومبادئها بوضع نمطية لها من خلال الأسئلة التاريخية.
- تحديد الحكومة المثالية وفصل السلطات.
- الدفاع عن التجارة؛ وعن أن التجارة قد تفسد القيم الخالصة والفضائل الأخلاقية بزيادتها لمنطقتها الخاص إلا أن مونتيسكيو يدافع عنها لأنها تضمن السلم مدنيا وعالميا.

وختاما أهم ما قدمه مونتيسكيو يكمن في إشارة قطبين من أقطاب علم الاجتماع له وهما: أوجيست كونت ودوركايم، فقد أشار أوجيست كونت أهمية ما قام به مونتيسكيو من تحديد العلاقات بين النظم والبيئة أما دوركايم فيرى أن علم الاجتماع الحقيقي يبدأ من مونتيسكيو فهو الذي حدد موضوعه الحقيقي وفصل بين مبدأين أساسيين: نوع الدراسات الاجتماعية والغاية التي تتوخاها من تلك الدراسات.

في الواقع إن دراسة أنماط التفكير الاجتماعي –ولو بصورة موجزة- التي سبقت مرحلة ظهور علم الاجتماع من شأنها أن تقدم لنا تصور مسبق عن ماهية هذا العلم، وكيف نشأ وتطور خلال مسيرة قرون ضمن حضارات الشرق القديم إلى غاية أواخر القرن الثامن عشر، فقد كشفت طبيعة البناءات والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي ظهرت في المجتمعات البشرية عن مدى اختلاف هذه البناءات والنظم المصاحبة، كما كانت عليه خلال العصور الوسطى سواء كانت مسيحية أم إسلامية وخلال عصور الإصلاح والتنوير.

كما عكست تصورات وآراء مفكري فلاسفة التاريخ الذين ظهروا خاصة خلال القرن السادس عشر والسابع عشر إلى التمهيد لظهور مجموعة من التيارات الفكرية والعقائدية والسياسية والاقتصادية التي أدت في مجملها إلى ظهور المجتمع الصناعي الحديث، كما كان لظهور هذا المجتمع تأثير هام ودعوة صريحة لقيام أو نشأة علم الاجتماع ذاته، لدراسة المشكلات الناتجة عن طبيعة المجتمع الصناعي، وهذا ما جعل الكثير من علماء الاجتماع فيما بعد ينظرون إلى علم الاجتماع على أنه يهتم بدراسة المجتمع الصناعي الحديث، وبالطبع إن مهمة علم الاجتماع كرست من أجل دراسة مشكلات المجتمع الحديث وطبيعة التغيرات التي طرأت على نوعية الفرد والجماعة والعلاقات والحياة الاجتماعية ككل.

وهذا ما سنتطرق له في المبحث الموالي والمخصص للبدايات الأولى للعلم الاجتماع الغربي:

5- القرن التاسع عشر وميلاد علم الاجتماع: على الرغم من التاريخ الطويل للإنسان ومعرفته بالحياة الاجتماعية منذ نشأته الأولى إلا أن عمر علم الاجتماع لا يتجاوز القرن ونصف وهو كما يقول: "روبرت ميرتون Robert Merton" علم جديد جدا لموضوع قديم جدا.

لقد كان لظهور الدول الحديثة واستقلالها سببا في ظهور الفلاسفة والمفكرين الذين تناولوا الدولة وصلتها برعاياها والمجتمع و نشأته وتطورت ولقد كثر الجدل والنقاش حول كثير من الموضوعات وكان من أبرز هذه الدراسات دراسة الكاتب الإنجليزي "توماس هوبز Thomas hobs"(1588-1679م) حيث ميز في دراسته بين مجتمعين، مجتمع على حالة الطبيعة وهو المجتمع لا يوجد على رأسه حكومة، ووصفه بالمجتمع الفوضوي، ولذلك تكون حياة الأفراد فيه شر وخوف ولا مجال لممارسة الأنشطة الاقتصادية، أما النوع الثاني من المجتمع فهو المجتمع الذي يخضع لحاكم.[1]

لقد كان النظام الإقطاعي القديم في أوروبا هو النظام الذي تأسس على القرابة والأرض والطبقة الاجتماعية والمجتمع المحلي والملكية، قد أخذ في الاهتزاز و الانهيار نتيجة للثورة الفرنسية والثورة الصناعية، ونمو القوى الديمقراطية وهي العناصر التي

---

[1] عبد الحميد لطفي: علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت (لبنان)، 1965، ص ص 243-244.

عملت عملها على المسرح الأوروبي خلال القرن التاسع عشر لذلك فإن تاريخ السياسة في هذا القرن إنما يدور حول الجهود العلمية لإعادة تكييف وسواء مواءمة هذه العناصر، كما ظهر علم الاجتماع بوصفه هذا نظريا لإنجاز المهمة ذاتها، أي إعادة مواءمة تلك العناصر ووضعها في هذا العهد يعني أساسا بطبيعة المجتمع وموقع السلطة، وتفاوت الثروة واختلافها، ودور الفرد في المجتمع الغربي.

ومن ثم استجاب علم الاجتماع في بنائه لحدثين بالغي الأهمية، حدث مادي طبعه تمثل في الثورة الصناعية، وحدث معنوي تمثل فيها تمخض عن فلسفات التنوير من ثورة سياسية وديمقراطية أو لنقل أن هذين الحدثين قد فوض معالم النظام الإقطاعي القديم من جهة، ومهدا لتيارات علمية وفكرية جديدة من بينها علم الاجتماع من جهة أخرى.

أ-التقلبات السياسية: ظهر علم الاجتماع في الفترة (1815-1918) وما يميزها تقلبات سياسية وعسكرية عميقة مست النظام القديم القائم على ثلاثة مراتب وهي: النبلاء والكنيسة والآخرون من غير الدولة، والملكية الوراثية، نظام عارضته الطبقة السياسية الجديدة المتمثلة في البرجوازية، التي أسست لإقامة نظام سياسي أكثر مساواة وفي هذا السياق تميز "ألكيس دوتوكفيل Alescis De Tocqueville" (1805-1859) بوضوح بين النسقين المتصارعين، نظام قديم مؤسس على سلم المراتب غير المتساوية وبالتالي المتفاوتة، ونظام جديد قائم على المساواة في الظروف.

تمخضت عن هذه الثورة السريعة إصلاحات الإمبراطورية الأولى وتصورات جديدة حول المجتمع لم تعد قوى حفظ النظام قادرة على احتوائها، فشهدت أوروبا ثورات 1830 و 1848 تبنتها حركات سياسية معارضة لم يستطع القمع البوليسي منعها وانهارت على إثرها أنظمة مختلفة في فرنسا وألمانيا والنمسا، وهيأت ظروف تنبه العقول خاصة في فرنسا حيث تعاقبت أنظمت متعارضة جدا؛ إمبراطورية فملكتين تهاوتا أمام الثورات، ثم جمهورية عملت بالاقتراع العام (1848) لم تعمر طويلا فإمبراطورية جديدة، وأخيرا جمهورية إلى غاية الحرب العالمية الأولى.

على الصعيد الإيديولوجي تصارعت في هذه الحقبة أيديولوجيات متعارضة – محافظة- ليبرالية- تضامنية- ثورية- وضع اعتباره بعض علماء الاجتماع أمثال: سان سيمون (1760-1825) وأوجست كونت وإيميل دوركايم، والمدافعين عن نظام اجتماعي مستقر، يدل على ضعف المجتمعات ومؤشر على سقم في الكائن الاجتماعي وظهرت على أنقاض القانون الطبيعي لفلاسفة عصر الأنوار العقلانيين أكثر النظريات رجعية التي طالبت بالعودة للنظام القديم، وتزامنا مع ذلك برزت أكثر النظريات شجاعة وأكثرها طوباوية.

رغم ما اقترح علماء الاجتماع من حلول مختلفة، تفاوتت إجاباتهم على السؤال ذاته: كيف يمكن وضع حد للأزمة الاجتماعية التي تعيشها أوروبا؟ تكرر السؤال من سان سيمون إلى تونيز ومن خلال فلسفة كونت الاجتماعية، واشتراكية ماركس العلمية، والنزعة الأخلاقية عند دوركايم وأما اختلاف الحلول المقترحة فمرده إلى إمكانية تطبيق هذا العلم الجديد في الإصلاح الاجتماعية، ضمن جهة يرى أصحاب النزعة التدخلية (interventionniste) أنه بإمكان علماء الاجتماع المساهمة في معالمية (أو على الأقل تخفيف) معاناة المجتمع، بينما تعتبر النزعة الوضعية (positivisme) عند سان سيمون وأوجست كونت أكثر تشددا حيث يهدف علم الإنسان أو الفيزيولوجيا الاجتماعية عند الأول والفيزياء الاجتماعية أو السوسيولوجيا عند الثاني إلى إصلاح المجتمع ليتماشى والذهنية الصناعية أو الفكر الوضعي، وفي الطرف الآخر يؤكد أصحاب النزعة الحيادية (les neutralistes) مثل ماكس فيبر أو فلفريدو باريتو (1848-1924) على عجز العلم عن تبرير قيم الفعل، بينما يحتل دوركايم وضعية وسطية والذي يرى أنه من الضروري أن يؤدي العلم إلى الملموس، لكن ذلك يتطلب وقتا.

ب- الثورة الصناعية: إذا كان لفرنسا الدور الكبير في نشر الأفكار السياسية، فإن إنجلترا من جهتها صدرت نمط الإنتاج الصناعي الذي حول بصفة عميقة تنظيم العمال، فكانت مخبرا حيث جربت تقنيات جديدة في الإنتاج وتسيير اليد العاملة واكتشاف قوانين الاقتصاد السياسي، التي كان على السوسيولوجيا أخدها بعين الاعتبار، وظهر على إثر ذلك وبصفة تدريجية بروليتاريا حضري نشط ومطلبي حاولت السلطات مراقبته بالتضييق على منشطيه أو طردهم.

وبالنتيجة انتشرت ذهنية صناعية حقيقية خلفت آثارا هدامة استشعرتها الجماهير العاملة مثلت في فقدان تأهل فوري للعمل الحرفي، والاستغلال الشرس البائس للعمال بأجور زهيدة فرضت عليهم دفعت بهم إلى تشغيل أطفالهم في سن مبكرة لضمان بقاء المجموعة، وبالنتيجة استقطب تدهور أوضاع الطبقة العاملة انتباه الجمعيات الخيرية المهتمة بالسلم الاجتماعي بل وكذا الحركات الاشتراكية التي اعتبرت هذه الأوضاع دليلا على انعدام إنسانية هذا النظام، والهيئات الحكومية المهتمة بمخاطر الشغب، كما ساهمت فئة من الرأسمالية الليبرالية في هذه الحركة وعيا منها بضرورة وضع ترتيبات سياسية لتفادي تراجع مردود (قوة) العمل وعلى هذا الأساس يعتبر قرن التضييع أيضا قرن القوانين الاجتماعية.

أنجزت في هذا السياق بحوث اجتماعية كثيرة في أواخر القرن 19 بحوث ذات نزعة عملية انبثقت عنها باكورات بحثية واسعة حول الفقر، ففي فرنسا مثلا طلبت أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية إجراء سلسلة أبحاث ميدانية حول أوضاع الطبقات العاملة، فاختار "فيلرمي L.R. Villermé" (1782-1863) الطبيب الذي اختص فيما بعد بالإحصاء دراسة مصير عمال معامل النسيج فوصفه في مؤلفه الشهير: Tableau physique et moral des ouvriers dans les fabrique de coton الصادر سنة 1840، وهو مؤلف يتضمن دراسة ميدانية استعمل فيها الملاحظة المباشرة محللا مختلف جوانب النمط المعيشي للعمال من عمل ومسكن وترفيه، ودرس " بوريت E .Buret" الموضوع ذاته ولكن على صعيد أوسع في كتابه: La misère des class laborieuses en france et en Angleterre (1840).

كما ساهم "أنجلز F.Engles" (1820-1895) في المشروع نفسه، ذلك بالكشف عن استغلال الطبقة العمالية وهذا في مؤلفه: La Situation des chasse laborieuses en Angleterre الصادر سنة 1845 والذي كان له عميق الأثر في الشاب كارل ماركس.

موازاة مع ذلك نشأت الإحصاءات الاجتماعية أو الأخلاقية فكانت عنصرا زود وسائل الباحث السوسيولوجي، فنشر "كيتليه A.Quételet" (1796-1874) وهو عالم إحصاء بلجيكي ابتداء من سنة 1835 كتابه: L'homme et le développement de les facultés on essai de physique Sociale واستعمل أوجست كونت العبارة الأخيرة (الفيزياء الاجتماعية) في: cours de philosophie prostré ولكن بفكر مختلف جدا فذهب إلى تغيير نسبة التخصص التي أصبحت فيما بعد سوسيولوجيا لتفادي الخلط مع الإحصاء الاجتماعي.

شكلت أعمال "لوبلاي F.leplay" (1806-1882) في فرنسا شريان آخر بفصل المونوغرافيات التي أنجزها على الصعيد الأوروبي أنتجت تقنية أصيلة وإمبريقية تدرس الميزانيات العائلية في كتاب: Les ouvriers européens الصادر سنة 1855.

في ألمانيا سنة 1872 كلفت الجمعية من أجل سياسة اجتماعية التي أسسها عالم الاقتصاد "شمولر G. Schmoller" (1838-1917) والشاب ماكس فيبر بإعداد بحث حول وضعية الفلاحين في بروسيا الشرقية.

ومجمل القول أن من مخلفات التقدم السريع الإنتاج الصناعي وتطور الممكنة على نطاق واسع ظهور إشكالية " المسألة الاجتماعية" وضرورة تطوير علم اجتماعي قادر على تحليل الوضعية بمنهج علمي على غرار ما يحدث في علوم الطبيعة.[1]

من خلال عرضنا لأهم عاملين ساهما في بلورة وظهور علم الاجتماع في الغرب عموما وفي أوروبا خصوصا وهما: التقلبات السياسية والثورة الصناعية وهو الطرح الذي قدمه علم الاجتماع(أي أنهما عاملان كفيلان فقط بظهور علم الاجتماع)، لأن ميلاد علم الاجتماع يجب أن يفسر من خلال السياق السياسي والاجتماعي والاقتصادي للقرن التاسع عشر في العالم ككل وهو ما جعل"روبرت نزبت Robert A.Nisbet" في كتابه:"la tradition sociologique" وهي الأطروحة التي عارضها علماء الاجتماع الأمريكيون بحجة رفض وحدة نشأة علم الاجتماع، لأنه استخدم "روبرت نزبت" لعاملي الثورتين وأهم المفاهيم التي صاحبتها كالجماعة والسلطة والمقدس والاغتراب لا تمثل الوحدة إلا إعادة إنتاج للفكر الأوروبي بالخصوص ورد فعل ضد الأنوار

---

[1] جان بيار دوران و روبير فايل: علم الاجتماع المعاصر، ترجمة: ميلودي طواهري، دار بن النديم للنشر والتوزيع (الجزائر)، دار الروافد الثقافية، ناشرون، بيروت (لبنان)، 2012، ص ص23-27.

والتحديث والثورة، بل كان علم الاجتماع المكان الأقرب لتقريب الإيديولوجيات الثلاث الكبرى المسيطرة في القرن التاسع عشر الليبرالية، الراديكالية، المحافظة والتي تشترك في تشكيكها وكراهيتها وأحكامها على مخلفات "الثوريين".

كذلك لأنه من الصعب النظر إلى السوسيولوجيا الناشئة باعتبارها رفضا جماعيا أو محل إجماع كما أنه من الصعب انتقاء كل التيارات المختلفة التي كانت حاضرة وتجميعها في مخطط بسيط واحد فهل مثلا لنقدية "ماركس K. Marx" و"لوبلاي Le play " أو "توكفيل" نفس الغاية؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو كذلك ثالوث نزبت: "المحافظون، الراديكاليون، الليبراليون" سخيف بعض الشيء، ومن الضروري التأكيد على تعددية وطبيعة وغاية الأفكار التي عملت على تأسيس قاعدة سوسيولوجية القرن التاسع عشر.

لذلك يصعب الجزم بأن علم الاجتماع وليد الثورتين أو أنه نمط أنماط المتقاربات الجديدة النشأة فالقضايا الاجتماعية تلتصق بالإنسان الأول أما تنظيم هذا النسق من المعرفة وتأسيسه ضمن نشاط جماعي وأكاديمي فهو حديث ولا يتجاوز نشأة الاسم وضبط التحاليل الأولية للمشروع القرنين السابقين، فهذا العلم ذو تاريخ قصير وماض طويل.

مراجع المحاضرة:

1- أحمد رأفت عبد الجواد: مبادئ علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة (مصر). 1983.

2- إبراهيم عيسى عثمان: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 2007.

3- السيد الحسيني: المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعة الإسكندرية (مصر)، 1995.

4- السيد محمد بدوي: علم الاجتماع ومشكلات المجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (مصر)، 1995.

5- جاستون بوتول: تاريخ علم الاجتماع، ترجمة: غنيم عبدون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة (مصر)، د س.

6- جان بيار دوران و روبير فايل: علم الاجتماع المعاصر، ترجمة: ميلودي طواهري، دار بن النديم للنشر والتوزيع (الجزائر)، دار الروافد الثقافية، ناشرون، بيروت (لبنان)، 2012 .

7- جان جاك شوفاليب: تاريخ الفكر السياسي، من المدينة إلى الدولة القومية، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، 1985.

8- خواجة عبد العزيز: أساسيات في علم الاجتماع، دار نزهة الألباب للنشر والتوزيع، غرداية (الجزائر)، 2012.

9- عبد الحميد لطفي: علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت (لبنان)، 1965.

10- عبد العزيز خواجة: علم اجتماع المعاصر، من الجذور إلى الحرب العالمية الثانية، منشورات دار نزهة الألباب، للنشر والتوزيع، غرداية (الجزائر) ج١، د س.

11- عبد الله محمد عبد الرحمان: علم اجتماع التربية، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية) مصر، 1998.

12- عبد الله محمد عبد الرحمان: علم اجتماع، النشأة والتطور، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية) مصر، 1999.

13- عبد الله محمد عبد الرحمان: علم الاجتماع الاقتصادي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (مصر)، 1994.

14- عبد الهادي محمد والي: تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية (مصر)، 1998.

15- عزة أحمد صيام: تاريخ الفكر الاجتماعي، منشورات جامعة بنها (مصر)، 2012.

16- محمد عاطف عيث: دراسات في التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دار النهضة العربية القاهرة (مصر)، 1975.

17- محمد علي محمد: تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعة الإسكندرية (مصر)، 1985.

18- ويل ديورنت: قصة الحضارة، ترجمة: بدران وآخرون، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع حاليا، المجلة الأول، بيروت، لبنان، 1970.

19- Elizabeth j-Wilkins :sur introduction to Sociology Macdonald and Evans،2^{eme} edition 1978.

20- Gilles fevreol : Histoire de loi pensée Sociologique ، A. colin، France، 1994.

موضوع علم الاجتماع

تقديم:

يعكس تحليل التراث والأدبيات لعم الاجتماع عن تعدد نوعية الموضوعات التي يهتم بها هذا العلم منذ نشأته الأولى نظرا لتنوع هذه الموضوعات حسب إهتمامات الباحثين و العلماء.

فيكاد يجمع علماء الاجتماع على أن علم الاجتماع هو **دراسة المجتمع في ظواهره ونظمه وبنيته والعلاقات بين أفراده دراسة علمية وصفية تحليلية**، ولكن ميدانا واسعا كهذه السعة قد يصبح من العمومية التي تقضي على شخصية العلم وتسيئ إليه ، وغنى عن البيان أن علم الاجتماع لايمكنه أن يشق طريقه نحو الإرتقاء إذا أقحم نفسه في مجالات متعددة تتصل بجميع نواحي الحياة وشؤون المجتمع.

لذلك يشير "زيمل" الى أن نطاقات وحدود السوسيولوجيا ، كما إنبثقت في القرن التاسع عشر ، تتميز بالغموض وإنعدام الدقة، ويعبر عن إمتناعه من إفراغ كل العلوم التاريخية والاجتماعية والنفسية في إناء ضخم واحد يحمل إسم "سوسيولوجيا" والإفلات من هذا الوضع العقيم يجب تقديم تصور واضح للمجال الاجتماعي وفكرة دقيقة عن منهج السوسيولوجيا، فاذا أرادت السوسيولوجيا أن يكون لها موضوع مستقل يجب عليها أن تتخلى عن الطموح الى أن تكون علم كل الظواهر الاجتماعية، فتعريف السوسيولوجيا بأنها " **علم كل ماهو بشري** " لن يجعل منها سوى إسم آخر للعلوم الأخرى التي تدرس الإنسان، كتاريخ الحضارات، والإقتصاد السياسي، علم الأخلاق وعلم الأديان، والجماليات، وعلم السياسة والديمغرافيا وغيرها، وذلك لأن المواضيع التي تدرسها هذه العلوم الإنسانية موجودة في المجتمع.[1]

وهذا ماجعل علماء الاجتماع يحاولون تحديد موضوع هذا العلم –علم الاجتماع- ف انقسموا في هذا الخصوص إلى ثلاثة فرق:

الفريق الأول: ويذهب أصحاب هذا الفريق إلى أن موضوع علم الاجتماع هو دراسة **العلاقات الاجتماعية**، ويعرف أصحاب هذا الفريق بأصحاب "**مدرسة العلاقات**" ويتزعم هذه المدرسة المفكر الألماني " جورج زيميل" و "ماكس فيبر ".

ويبني هذا الفريق رأيه بصفة عامة على أساس الفصل بين شكل العلاقات الاجتماعية ومضمونها فإذا درست من حيث شكلها (أي طبيعتها الصورية) كانت موضوع علم الاجتماع، أما إذا درست من حيث مضمونها كانت موضوعا لعلم آخر، لأن العلاقات التي تنشأ بين أفراد كالتنافس ، والخضوع، وتقييم العمل ، والصراع، موجودة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، فهناك تنافس وصراع في الشؤون الإقتصادية والسياسية وبين المعتقدات الدينية، وهناك خضوع في الأسرة وفي بيوت العبادة وفي دور القضاء، ووظيفة علم الاجتماع هو تحليل المظاهر المختلفة للعلاقات الاجتماعية حتى تتعرف على خصائصها ومقوماتها تم محاولة تفسيرها في صورتها المجردة بعيدا عن مضمونها الاجتماعي.

لذلك نجد " زيمل" هو أحد رموز هذه المدرسة يعبر عن موضوع علم الاجتماع؛ **بعلم إجتماع التفاعلات** " une sociologie des interactions" أو مايعرف بالألمانية (wechselwirkung) القائم على شبكة العلاقات الاجتماعية والحياة داخل المجتمع، وتنقسم التفاعلات إلى : **عابرة فورية** : يلعب فيها الجانب الجسدي عنصرا ضروريا في تشكيل السلوكات، كما يمكنها أن تكون **دائمة** : وهي أساس العلاقات التبادلية بين الأفراد ترتظيم معين (الصداقة، الغيرة، التكتل، التحالف، الصراع، المنافسة على السلطة، اللياقة ، أو أي شيئ للإعتلاء على الآخرين) وتتجسد بالخصوص عن طريق التأكيد عن فاعلياتها أو قواعدها أو تخطيطها الرسمي.[1].

(1) جورج زيمل: تر: حسين أجيج: الفرد والمجتمع، المشكلات الأساسية للسيسيولوجيا، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة(مصر)، ط1، 2017،ص ص 25-26.

(1) G.simmel: le domaine de la sosiologie, sociologie et épistemologie, presses universitaires de france,1981, p90.

تعريف علم الاجتماع:

تقديم:

تعتبر مسألة تعريف علم الاجتماع ومجالات دراسته نقطة انطلاق وبداية منطقية لكثير من الكتابات التي ظهرت في علم الاجتماع وكان الهدف منها توجيه الباحثين إلى هذا العلم وتقديم صورة واضحة عن موضوعه، والمسائل التي تشغل اهتمام المشتغلين به ، وهذا هو نفس الأسلوب الذي سنحاول إتباعه في هذا العنصر بهدف توضيح الرؤية أمام الدارس والمهتم بهذا العلم.

حيث سنتطرق إلى تسمية هذا العلم؛ ثم جملة من التعريفات التي قدمها علماء الاجتماع وإشكالية التعريف في علم الاجتماع.

1- التسمية: قبل أن يصبح علم الاجتماع أو السوسيولوجيا بهذا الاسم ، سبقته عدة محاولات قدمها باحثون لكي يعبروا عن العلم الذي يفي بدراسة المجتمع، وأخذت هذه المحاولات مراحل واضحة نميزها فيما يلي:

أ- مرحلة ما قبل الكلمة : فمشروع إنشاء علم جديد يتكفل بالظواهر الاجتماعية وُجِد قبل إيجاد الكلمة ذاتها، إ ذ يرى البعض أن "ابن خلدون" هو أول من اقترح إنتاج معرفة حول المجتمع أسماها "علم العمران البشري"، وبالمقابل يعتقد البعض بأن كل من "مونتيسكو Montesquieu " و "روسو Rousseau " يشكلان الرائدان الأساسيان لعلم الاجتماع (في القرن 18)، بما اقترحاه من قوانين تحكم المجتمع، ويحلو للبعض ، العودة إلى أبعد من ذلك والرجوع إلى " هوبز T. Hobbes " الذي استوحى تصوره من تونيز (1855-1936) و"فيكو Vico" و"مونتانيا Montaigne" ومن سبقهم لاكتشاف الاهتمامات السياسية للفلاسفة الكبار في العصر القديم مثل أفلاطون وأرسطو.

ب- مرحلة الكلمة: نُحَتَت الكلمة –علم الاجتماع- من قبل "أوجست كونت Auguste conte" سنة 1830، فه يتكون لديه من لوغوس logos logie بمعنى الخطاب أو العقل، وكلمة Socio socius التي تدل على الرفيق أو الشريك، وبإلصاق الكلمتين نحصل على العلم الذي يهتم بالعلاقة الموجودة بين فردين فأكثر، لكن إلصاق الكلمتين "العلم" و"الاجتماعي" بمختلف إضافاتها وتعريفاتها (العلم الاجتماعي، العلم الاجتماع، علم الاجتماع، علم اجتماع) طرح إشكالات متعددة، انتهت بشبه اتفاق على المصطلح "علم الاجتماع" ، وإن كان هذا المصطلح هو الآخر قد يحمل بين طياته تحديات . وتبقى الكلمة الأجنبية منقولة إلى العربية "السوسيولوجيا" أكثر الكلمات دلالة على مضمون هذا العلم، وبذلك يكون عنده مفهوم علم الاجتماع هو علم يطمح إلى دراسة "القوانين الأساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية" وقد اقترح الكلمة تعويضا لمصطلح "الفيزياء الاجتماعية" التي كانت تعني مشروعا مماثل عند الإحصائي البلجيكي كتلي Quételet" وتحمل عنوان كتابه الأساسي.[1]

وقد كتب "كونت A.comte" سنة 1820 يقول: **"نحن الآن نملك فيزياء فلكية، وفيزياء أرضية وفيزياء أخرى وأخيرة تتعلق بالمجال الاجتماعي ليكتمل نظام معرفتنا بالطبيعة ، و أقصد بالفيزياء الاجتماعية: العلم الذي يدرس الظاهرة الاجتماعية بطريقة موضوعية وبنفس الروح التي ينظر بها لظواهر الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو الفيزيولوجيا ؛ أي أن تخضع الظواهر الاجتماعية لقو انين ثابتة".**[2]

لكنه (كونت) عدّل هذه التسمية وأستهجنها بعد أن استخدمها البلجيكي " أدولف كيتيله Adolphe Quételet" (1796-1874) في دراساته الإحصائية للمجال الاجتماعي ووضعها عنوانا لكتابه : "الفيزياء الاجتماعية physique Sociale " واقتراح كونت تسمية

(1) Xavier Molénat : La Sociologie, Histoire, idées ; courants, Sciences humaines éditions, paris, 2009, p30.
(2) A.compte : opuscules de philosophie sociale Bibliothèque paulémile, Chicoutimi 2002, p9.

رواد علم الاجتماع

تقديم:

إن ظهور علم الاجتماع كنسق علمي وفكري متميز لم يكن وليد الصدفة، فقد كان ثمرة جهود مجموعة من العلماء والفلاسفة اللذين حاولوا الوصول بحركة التاريخ إلى نهايتها المتصورة، من أجل صياغة الحياة الاجتماعية لدى البعض، والرغبة في الإصلاح الاجتماعي المتدرج، وعلاج الفوضى التي سادت المجتمع الفرنسي بعد الثورة الفرنسية لدى البعض الآخر، فقد سعوا جميعا إلى إنماء نظريات عامة تلائم البني الاجتماعية لمجتمعاتهم.

كل ذلك ما نحاول تناوله في هذا المحور أين نستعرض أهم قضايا وأفكار الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع، بدءا بابن خلدون الذي يختلف إسهامه عن بقية المؤسسين لأنه لم يتحيز أو يدافع عن مصالح طبقة أو فئة معينة، لننتقل إلى أوجست كونت وكارل ماركس وماكس فيبر وصولا إلى ايميل دوركايم، أين حاول كل واحد من هؤلاء تقديم نموذج أو أكثر للمجتمع والإنسان، لنصل في الأخير إلى تشكيل رؤية، ولو بسيطة، عن المعالم واللبنة الأولى التي أنشأها هؤلاء المؤسسين ليقدموا لنا علم وتخصص أكاديمي يدرس في الجامعات، ووضع نماذج تصورية لمختلف النظ ريات الاجتماعية، وكل ذلك ليصبح لدينا معرفة بكل ماله علاقة بمجتمعنا وما يحاط بنا.

1- ابن خلدون:

هو عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن خلدون، ويعود نسبه إلى حضرموت من عرب اليمن إلى وائل إبن حجر الصحابي الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فبسط له رداءه وأجلسه عليه ودعى له، ذكر إبن خلدون نسبة على هذا النسق، وقال: لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة.[1]

ولد إبن خلدون في تونس في غرة رمضان (732هـ-808) الموافق (1332-1406م) فهو أندلوسي الأصل أمازيغي النشأة.[2]

تخرج من جامع الزيتونة وقد كان مثقفا موسوعيا ملما بكل المعارف والعلوم والفنون والآداب المعروفة في عصرهّ، برع كثيرا في علم التاريخ وفلسفته، بل يعد ، في الحقيقة ، مؤسس علم الاجتماع –العمران البشري- قبل أن ينسب إلى "سان سيمون" أو "أوجست كونت" وقد كان ابن خلدون قريبا من الملوك والحكام والسلاطين في الأندلس والمغرب والجزائر وتونس ومصر، وقد عانى الكثير من جراء أحابيل السلطة ومكانتهما، وقد مارس القضاء في مصر إبان عهد المماليك، وعايش فترة المغول وأستوعب تاريخ العصور الوسطى بشكل جيد مما ساعده ذلك على صياغة نظرية العمران البشري واستجلاء نظرا له أطوار الدولة.[3]

وقد كان ابن خلدون في بحوث مقدمته سابقا لعصره وتأثر به عدد كبير من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده مثل: الإيطالي فيكو والفرنسي جان جاك روسو.[4]

وقد ألف ابن خلدون مجموعة من الكتب والمصنفات أهمها : كتاب: **مقدمة ابن خلدون** وكتاب: **تاريخ ابن خلدون** المسمى: **بكتاب العبرودیوان المبتدأ والخبرفي أيام العرب والعجم والبررومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**،وكتاب **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا**.[5]

---

[1] محمد الخضر حسين:حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة (مصر)، 2013، ص9.

[2] محمد عنان: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط 4، 2006، ص16.

[3] شفيق الجيوري :علم الاجتماع المعرفة عند ابن خلدون، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2012، ص150.

[4] محمد شهاب: رواد علم الاجتماع، دار الكتاب العربي، القاهرة (مصر)، 2012، ص13.

[5] ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط 1، 2004، ص12.

تعريف علم الاجتماع:

تقديم:

تعتبر مسألة تعريف علم الاجتماع ومجالات دراسته نقطة انطلاق وبداية منطقية لكثير من الكتابات التي ظهرت في علم الاجتماع وكان الهدف منها توجيه الباحثين إلى هذا العلم وتقديم صورة واضحة عن موضوعه، والمسائل التي تشغل اهتمام المشتغلين به، وهذا هو نفس الأسلوب الذي سنحاول إتباعه في هذا العنصر بهدف توضيح الرؤية أمام الدارس والمهتم بهذا العلم.

حيث سنتطرق إلى تسمية هذا العلم؛ ثم جملة من التعريفات التي قدمها علماء الاجتماع وإشكالية التعريف في علم الاجتماع.

1- التسمية: قبل أن يصبح علم الاجتماع أو السوسيولوجيا بهذا الاسم، سبقته عدة محاولات قدمها باحثون لكي يعبروا عن العلم الذي يفي بدراسة المجتمع، وأخذت هذه المحاولات مراحل واضحة نميزها فيما يلي:

أ- مرحلة ما قبل الكلمة: فمشروع إنشاء علم جديد يتكفل بالظواهر الاجتماعية وُجِد قبل إيجاد الكلمة ذاتها، إذ يرى البعض أن "ابن خلدون" هو أول من اقترح إنتاج معرفة حول المجتمع أسماها "علم العمران البشري"، وبالمقابل يعتقد البعض بأن كل من "مونتيسكو Montesquieu " و "روسو Rousseau " يشكلان الرائدان الأساسيان لعلم الاجتماع (في القرن 18)، بما اقترحاه من قوانين تحكم المجتمع، ويحلو للبعض، العودة إلى أبعد من ذلك والرجوع إلى " هوبز T. Hobbes " الذي استوحى تصوره من تونيز (1855-1936) و"فيكو Vico" و"مونتانيا Montaigne" ومن سبقهم لاكتشاف الاهتمامات السياسية للفلاسفة الكبار في العصر القديم مثل أفلاطون وأرسطو.

ب- مرحلة الكلمة: نُحَتَت الكلمة –علم الاجتماع- من قبل "أوجست كونت Auguste conte" سنة 1830، فهي يتكون لديه من لوغوس logos logie بمعنى الخطاب أو العقل، وكلمة Socio socius التي تدل على الرفيق أو الشريك، وبإلصاق الكلمتين نحصل على العلم الذي يهتم بالعلاقة الموجودة بين فردين فأكثر، لكن إلصاق الكلمتين "العلم" و"الاجتماعي" بمختلف إضافاتها وتعريفاتها (العلم الاجتماعي، العلم الاجتماع، علم الاجتماع، علم اجتماع) طرح إشكالات متعددة، انتهت بشبه اتفاق على المصطلح "علم الاجتماع"، وإن كان هذا المصطلح هو الآخر قد يحمل بين طياته تحديات. وتبقى الكلمة الأجنبية منقولة إلى العربية "السوسيولوجيا" أكثر الكلمات دلالة على مضمون هذا العلم، وبذلك يكون عنده مفهوم علم الاجتماع هو علم يطمح إلى دراسة "القوانين الأساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية" وقد اقترح الكلمة تعويضا لمصطلح "الفيزياء الاجتماعية" التي كانت تعني مشروعا مماثل عند الإحصائي البلجيكي كتلي Quételet" وتحمل عنوان كتابه الأساسي.[1]

وقد كتب "كونت A.comte" سنة 1820 يقول: **"نحن الآن نملك فيزياء فلكية، وفيزياء أرضية وفيزياء أخرى وأخيرة تتعلق بالمجال الاجتماعي ليكتمل نظام معرفتنا بالطبيعة، و أقصد بالفيزياء الاجتماعية: العلم الذي يدرس الظاهرة الاجتماعية بطريقة موضوعية وبنفس الروح التي ينظر بها لظواهر الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو الفيزيولوجيا؛ أي أن تخضع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة".**[2]

لكنه (كونت) عدّل هذه التسمية وأستهجنها بعد أن استخدمها البلجيكي " أدولف كيتيله Adolphe Quételet" (1796-1874) في دراساته الإحصائية للمجال الاجتماعي ووضعها عنوانا لكتابه : "الفيزياء الاجتماعية physique Sociale " واقتراح كونت تسمية

(1) Xavier Molénat : La Sociologie, Histoire, idées ; courants, Sciences humaines éditions, paris, 2009, p30.
(2) A.compte : opuscules de philosophie sociale Bibliothèque paulémile, Chicoutimi 2002, p9.

جديدة لمشروعه العلمي الجديد، كي يكون مختلفا شكلا ومضمونا عن مقترح كيتليه Quételet بذلك ظهرت هذه الكلمة ذات الذوق المحبب عند الكثيرين "علم الاجتماع Sociologie".

ج- **مرحلة المؤسساتية**: لا يمكن لنشاط علمي معين أن يصبح مؤسساتيا إلا إذا تم تدريسه في الجامعة، ففي فرنسا أنشئ كرسي (chaire) "للبيداغوجيا والعلوم الاجتماعية" عام 1895 بجامعة بوردو Bordeaux من قبل السوسيولوجي الفرنسي "إميل دوركايم Emile Durkheim" وكان ذلك تزامنا مع صدور كتابه (قواعد المنهج في علم الاجتماع) في نفس السنة.[1]

وبعد انتقاله إلى السربون Sorbonne عام 1906 حصل على كرسي يحمل اسم "علم التربية وعلم الاجتماع" عام 1913 وحدث نفس السيناريو تقريبا في كل من إنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية فقد درس "سومنر W.G Somner" لأول مرة علم الاجتماع في جامعة " ييل yole " بداية من سنة 1876 وفي عام 1892 تم تأسيس أول قسم لعلم الاجتماع، بتمويل خاص في شيكاغو Chicago تحت رئاسة "A.W.Small".[2]

2- ماهية علم الاجتماع: ليس ثمة شك في أن غير المتخصصين في علم الاجتماع، وكذلك الذّين يبدون اهتماما بالقضايا الاجتماعية لديهم فكرة قد تتباين في درجة وضوحها أو غموضها عن هذا العلم، لكن قد يكون من الصعوبة عليهم بمكان أن يقدموا إجابة كافية عن التساؤل المطروح ما علم الاجتماع؟، وليس من شك في أن هذه الدعوى تنطبق، ربما بصورة أكثر وضوحا على المبتدئين في دراسة هذا العلم. وربما اعتقد هؤلاء وأولئك أن إجابة حاسمة يمكن أن يقدمها المتخصصون بسهولة، وربما لم يدر بخلدهم أن تعريف علم الاجتماع هو الإشكال الأول الذي يواجه المتخصصين أنفسهم، فلو أننا أجرينا تجربة مبسطة مفادها أن نوّجه هذا السؤال إلى أساتذة علم الاجتماع فإن دهشتنا قد تكون بالغة لتعدد وربما تباين واختلاف الإجابة، ولو أننا استعرضنا مجموعة من التعريفات المطروحة في المؤلفات والأدبيات أو المداخل الأساسية لهذا العلم فإننا سنواجه نفس الإشكال أيضا، التعدد والتباين وربما الاختلاف منذ البداية في تعريف علم الاجتماع، ولذلك فإن التساؤل الذي يثار حول ماهية علم الاجتماع يثير بدوره سؤالا ربما كان أكثر أهمية حول أسباب اختلاف المخصصين في تعريفهم وتصورهم لهذا العلم؟، ولنؤجل الإجابة عن هذا التساؤل في العنصر الموالي، أي لنؤجل تفسير الاختلاف والتباين والرؤية والتصور حول تعريف علم الاجتماع إلى محطة أخرى ونركز ،(محاضرة أخرى) فيما يأتي، على التعريف:

فنظرا لقدم معالجة "الاجتماعي" في تاريخ الفكر البشري، فضلت السوسيولوجية "مادلين غرافيش M. Grawitz" أن تسجل ماهية علم الاجتماع باللحظة الحاسمة التي يولد فيها ابستيمولوجيا متجاوزة بذلك كل التعاريف والتصورات المتقدمة حول علم الاجتماع وقائلة بأن: **"علم الاجتماع هو دراسة الو اقع الاجتماعي، ونظر لكون الاهتمامات الفلسفية المنتجة حول طبيعة المجتمع، أو الأخلاقية المشكلة حول طرق تطويرة، قديمة قدم التفكير الاجتماعي والسياسي والفلسفي، فإنه بداية من اللحظة التي يتم فيها رؤية الفعل الاجتماعي بمعزل عن الأحكام القيّمية تولد السوسيولوجيا باعتبارها علما".**[3]

إذا كانت غرافيتش قد حددت ماهية علم الاجتماع بدقة، إلا أن التعريف الذي اختاره معجم المصطلحات الاجتماعية، بخلاف ذلك، كان جد واسع إلى درجة الغموض الذي لا يفرق بينه وبين العلوم الاجتماعية الأخرى، فقد اعتبره **"علما من العلوم الإنسانية المتخصصة في دراسة الظواهر الاجتماعية موضوعيا وتحليلها علميا بتقنيات خاصة، وتفسيرها عقلانيا، استنادا إلى النظر في المجتمعات الإنسانية التاريخية وقو انين تركيبها وتطورها وأدائها، ثباتها وتغيرها".**[1]

وقصد الجمع بين كلا التصورين لغرافيتش وما ورد في معجم المصطلحات الاجتماعية حول ماهية علم الاجتماع فإننا نعبر عنه –علم الاجتماع- بأنه **المدرسة العلمية للمجتمع أو أنه علم المجتمع.**

---

[1] Emile Durkheim : les Régles de la méthode sociologique, chicoutimi, québec, 6^{éme} Edition, 1906, p15.

[2] خواجة عبد العزيز: أساسيات في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص114.

[3] M. Grawitz: Méthodes des sciences sociales, Dalloz, Delta, 10^{éme} éd, 1996, p73.

[1] خليل أحمد خليل: المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص17.

وفي الأخير نشير إلى أن المعرفة التي يضمها علم الاجتماع هي معرفة يجمعها باحثوا هذا العلم من الأفراد أنفسهم ثم ينظرون حول هذه المعرفة ويستخدمون نظريات كثيرة لتفسير الظواهر الاجتماعية والمعرفة المتعلقة بها.[2]

فعلم الاجتماع على حد تعبير "ريشارد أوزبرن" شبيه بتعلم ركوب الدراجة، فبمجرد ما ينجح المرء في قيادتها يبدو له الأمر سهلا وبسيطا، لكنه يجد من العسير تفسير هذه التجربة لشخص ما، كذلك فإن نمو الإنسان الذي يبدو طبيعيا على نحو ما يشبه ركوب الدراجة وبها من الأمور التي يصعب شرحها للآخرين.[3]

3- **إشكالية التعريف**: من المسائل التي وضعت على بساط البحث منذ زمن طويل بين علماء الاجتماع مسألة تعريف هذا العلم خاصة وأن معظم هؤلاء العلماء يتفقون بينهم في نقطة واحدة هي عدم اتفاقهم على تحديد تعريف شامل لعلم الاجتماع، وهو ما يؤكده "ريمون آرون" أحد المشتغلين بعلم الاجتماع بفرنسا، أن: **"علم الاجتماع يتميز بأنه دائم البحث عن نفسه، وإن أكثر النقاط اتفاقا بين المشتغلين به هي صعوبة تحديده"**.[4]

وعلى الرغم من وجود تباين في تعريف هذا العلم، فإن ثمة نقاط رئيسية، تمثل ولو هيكلا عاما يتحرك من خلاله هذا العلم، ويتحدد به موضوعه الأساسي، وهو هيكل يشير إلى أن علم الاجتماع **هو العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة علمية، بهدف الكشف عن القوانين أو القواعد أو الاحتمالات التي تخضع لها هذه الظواهر في ترددها أو اتجاهها أو اختفائها، أو هو علم دراسة الإنسان والمجتمع دراسة علمية، تعتمد على المنهج العلمي، وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث**.

وجلي أن هذه الأبعاد الأساسية في التعريفات السابقة تعد حصاد تطورات علم الاجتماع منذ أن أشار إليه ابن خلدون الذي حدده بأنه: "علم **العمران البشري، وما يحويه هذا العمران من مختلف جوانب الحياة الاجتماعية المادية والعقلية"**[5] مرورا بأوجست كونت الذي يعتبر أول من أعطى علم الاجتماع طابع العلم الوضعي (منهجية محددة) وأطلق على العلم الجديد اسم "الفيزياء الاجتماعية" ليؤكد أن الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين مثل الحياة الطبيعية، وقسم العلم الجديد إلى فرعين: فرع تشريح المكونات، وفرع شرح الوظائف وقدم تعريف لعلم الاجتماع بأنه: **الدراسة الوضعية لمجموع القوانين الأساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية**".[6]

وقد يرى بعض المتخصصين والنقاد أن تعريف علم الاجتماع وتحديده بدراسة الإنسان والمجتمع، يجعله يتداخل مع فروع أخرى من فروع العلوم الإنسانية وبالتالي يطرح السؤال الآتي: ما الذي يميز علم الاجتماع من غيره من العلوم الإنسانية؟ والواقع أنه من خلال المحاولات المختلفة التي اعتنت بدراسة ما يميز علم الاجتماع عن غيره من العلوم يتبيّن **أنه إذا كان كل علم من العلوم الإنسانية يدرس جانبا أو أكثر من جوانب الإنسان أو المجتمع، فإن علم الاجتماع يدرس المجتمع ككل في ثباته وتغيره، ويدرك الإنسان من خلال علاقته بالمجتمع، أي أنه أكثر شمولا من أي علم من العلوم الإنسانية**.[7]

ويطلق هذا العلم اصطلاحا على كل بحث موضوعه دراسته طائفة معينة من الظواهر لتبيان حقيقتها، وكمية عناصرها وكيفية تطورها، ونوعية وظائفها، وطريقة علاقتها التي تربطها ببعض، وتربطها بغيرها، وأخيرا كشف القوانين الخاصة بها في مختلف النواحي.[1]

من خلال هذا التأسيس النظري نحاول إبراز أهم الصعوبات والإشكاليات التي تواجه الدارس والمتخصص في محاولة تحديد وتعريف علم الاجتماع.

---

[2] مهنا حداد: مداخل إلى العلوم الاجتماعية، دار المجدلاوي، عمان (الأردن)، 1991، ص125.

[3] ريتشارد أوزبرن وبون فان لون، تر: حمدي الجابري: أقدم لك علم التاريخ، منشورات المجلس العلى للثقافة، القاهرة (مصر)، ط1، 2005، ص13.

[4] ريمون آرون: المجتمع الصناعي، تر. فكتور باسيل، دار عويدات للطبع والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، 1965، ص9.

[5] أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، ط1، 1970، ص298.

[6] Auguste comte : the positive philosophy, Vol :01, George Bell, London, 2000, p27.

[7] عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، منشورات عالم المعرفة، الكويت، 1981، ص16.

[1] حسن الحاج حسن: علم الاجتماع الأدبي، الدار الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت (لبنان)، ط1، 1983، ص19.

أ- **المنطلقات المنهجية الخاطئة**: من المؤكد أن نقطة الانسداد في تعريف هذا العلم تعكس بشكل سريع عدة فجوات في المنطلقات المنهجية التي بُنيت عليها التحديدات الكلاسيكية أهمها منطلقان:

- **على المستوى النظري**: انقسمت التحديدات بين الذين يتبنون فكرة **أسبقية الحدث الفردي على الو اقع الاجتماعي**، فمصدر الظواهر الاجتماعية المشتركة هي دوما تجميع للأفعال الفردية سواء بإعادة إنتاجها أو تحويلها أو غير ذلك، والذين يعتقدون بأسبقية **الاجتماعي على الفردي** وأن النظام الاجتماعي هو الذي يحدد سلوكيات الأفراد بكل دقائقها في الأكثر خصوصية منها كالتقاء الزوجين، واختيار أسماء الأطفال.
- **على مستوى المنهج**: بين الذين ينطلقون من أهمية جمع المعطيات الكمية واستغلالها فلا أهمية للبحث دون هذا المبدأ، والذين يعتقدون أن لا شيء يعوض الجمع الدقيق للمعلومات الكيفية ولا قيمة للكم، إنما الأصل في البحث الفهم فقط.[2]

ب- **الطرق الخاطئة**: ولدى المنطلقان الخاطئان السابقان عدة طرق خاطئة بالضرورة في تعريف علم الاجتماع هي:

- **تعريف علم الاجتماع عن طريق المؤلفين**: فتحديد ماهية هذا العلم كما قدمه "فيبر" أو "دوركايم" أو "باريتو" أو غيرهم شبيه بمن يدعي بأن الفيزياء ما هي إلا الخطاب الذي أنتجه "نيوتن" أو "أنيشتاين" أو غيرهم من جهة، ومن جهة أخرى محاولة التحديد الحرفي للسوسيولوجيا حسب روادها يوصلنا إلى حالة من الشظايا الانفجارية المشتت هنا وهناك، لأن السوسيولوجيون الأوائل كانوا، في البداية، أصحاب تخصصات متعددة من فلاسفة ومهندسين واقتصاديين ورجال القانون والسياسة.
- **تعريف علم الاجتماع عن طريق المناهج:** وذلك من خلال الربط بين التعريفات والتقنيات المستخدمة كالمقابلة والاستمارة وتحليل المحتوى، وهذا يعني وضع أدوات التنقيب في درجة أعلى من الأهداف المتوخاة من قبل الباحث أو البحث، من جهة أخرى، يصعب الجزم بأن هذه التقنيات والأدوات تخص علماء الاجتماع دون غيرهم ولهم الحق في الاستحواذ الكامل عليها، فهي مستخدمة في الكثير من الحالات بدرجة كبيرة من الحذر يتقاسمها معهم مختصون من مجالات أخرى، فالمقابلة مثلا، تستعمل من قبل عدة جهات أخرى: كالموظف في العمل الإداري والصحفي في التقصي الإعلامي وحتى الطبيب في ضبط البيانات الصحية، فهي تسمح بتحقيق سبر للآراء في مجالات معرفية مختلفة.
- **تعريف علم الاجتماع عن طريق النظريات**: من خلال ربط مفاهيمه بالنظرية الوضعية أو التطورية أو الماركسية أو الوظيفية أو البنائية...إلخ، وهذا ما يعني إبراز وربط هذا العلم بتفسيرات غالبا ما تكون تنافسية بين مدارس متباينة، دون الاهتمام بتثمين النتائج العلمية المحصل عليها من جهة، وتمر هذه النظريات من جهة أخرى في عمومها نقلا أو استيرادا لنظريات من تخصصات أخرى كالفيزياء، والبيولوجيا، والاقتصاد، والإثنولوجيا وغيرها.
- **تعريف علم الاجتماع عن طريق الموضوع أو المشكلة المطروحة**: قد يكون هذا الطريق أقل ضررا من غيره، وهو ينطلق من التساؤل الذي يبحث في جوهر المجتمع: أهو مجموعة جماهير توحدها قيم مشتركة؟ أم أنه مجرد تموقع لعدد من السكان فوق مساحة واحدة؟. تتقاسم الإجابة على هذا السؤال مقاربتان: "المقاربة الجوهرية Substantialiste" التي ترى أن الموضوع أو المشكل القاعدي لعلم الاجتماع يتعلق بالروابط الموجودة بين الإنسان والمجتمع، والمقاربة "العلاقاتية Relationmelle" التي ترتكز على أن معالجة مشكلة ما يبدأ من فهم طرق عيش الأفراد مع بعضهم بعضا ضمن أنماط معينة؛ كالعيش داخل العائلة أو المدرسة،وخلال فترات الراحة في أماكن التسلية أو في العمل أو في المدينة أو في مواجهة الأسرار أو الأشياء الغامضة التي تحيط بنا.

فعلم الاجتماع بذلك يطرح أسئلة ويستعمل أو ينتج معطيات لا تنحصر في "الاجتماعي" فقط، بل تتعداه إلى معالجة معطيات من مجالات أخرى كالسلطة والهوية والمعتقدات والاتصال، ما يصعب أكثر من مهمة تعريفه.

---

[2] خواجة عبد العزيز: أساسيات في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص106.

وبالتالي تعريف علم الاجتماع ليس بالأمر الهين نظرا للصعوبات التالية:

- اتساع مجال بحثه.
- تعدد موضوعاته.
- تداخل المفاهيم المشكلة له.
- تعدد المدارس التي تدخل ضمن حدوده.

لكن عدم وجود تعريف دقيق لهذا العلم لا يقلل من أهميته ولا يشكك في علميته بل بالعكس من ذلك؛ فهو يزيد له قيمة وثراء، ولعل هذه الصعوبات ناتجة عن الطموحات الكبرى التي يسعى المجال السوسيولوجي لتحقيقها والتي يمكن إجمالها في هدفين:

1) الخصوصية: فهو يسعى لأن يكون علما قائما بذاته، له تميزه وشخصيته المنفردة.
2) **العمومية**: وهو يحاول الجمع بين أحضانه أكبر عدد ممكن من الظواهر المتصلة بالاجتماعي سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو قانونية أو غيرها.

ونتيجة لهذين الهدفين والخاصيتين في الآن ذاته، وجد نفسه يواجه تعقيدات زادت من التشكيك أكثر في مصداقيته، وأمام هذا التعدد المجالي لا يمكن الاعتماد على تعريف واحد لعدة أسباب أهمها:

- مغامرة من هذا النوع تحكم على علم الاجتماع بالحد من مجاله.
- يحتاج التعريف الواحد إلى تعريف آخر فإذا عرفناه بالتجمع أو الثقافة أو غيرها من المصطلحات فنحن نحتاج إلى تعريف آخر يعرف أكثر هذه المفاهيم ويحددها.
- التعريف الواحد يزيد في الغموض بدل التوضيح.

4- أهمية علم الاجتماع: تكمن أهمية علم الاجتماع في الآتي

- ✓ العمل على تحديد عناصر المجتمع، و تشجيع الأفراد على الإقبال على العمل الجماعي لما له من نتائج مثمرة.
- ✓ يعطي كافة المعلومات اللازمة عن المجتمع، و بناء على هذه الخطة يمكن الاستفادة في وضع الخطط التنموية التي تتناسب مع الإمكانيات، و الأخلاقيات السائدة في المجتمع.
- ✓ فهم المجتمع بظواهره المعقدة، و بتفسير هذه الظواهر من الممكن القيام بإصلاح المجتمع .
- ✓ يسعى لحل المشكلات الاجتماعية، و من خلال استخدام أساليب البحث العلمي ومن هنا يضع حلول جذرية لهذه المشكلات و يحد من الظواهر السلبية، و من الانحرافات .

5- العناصر الأساسية لعلم الاجتماع: هناك عدة عناصر أساسية لعلم الاجتماع أهمها ما يلي:

1) **المجتمع**: هو عبارة عن جماعة من الناس يعيشون على أرض واحد لفترة زمنية كبيرة تسمح بنشأة علاقات متعددة بين بعضهم البعض، و من خلال التعريف يمكننا أن نتوصل إلى المقومات الأساسية للمجتمع، و هي الأرض، والبشر، واستمرار العلاقات بين أبناء المجتمع، و قدر معين من الاكتفاء الذاتي .
2) **الثقافة**: عند النظر إلى مفهوم الثقافة من منظور ضيق نجد أنها ألوان من الفكر، و الأدب، و لكنها بالمعنى الواسع تعني ميراث المتجمع من عاداته، و تقاليده، و طرق معيشة أبنائه التي يسير على نهجها من أجل الوفاء باحتياجاته.
3) **البناء الاجتماعي**: يقصد بذلك البناء أنه هو عبارة عن مجموعة علاقات تمتاز بثباتها و استقرارها عبر الزمن، و يدخل بها الفرد مثل الأسرة .
4) **النظام الاجتماعي**: هو عبارة عن عدة أدوار منظمة تتصل بمجال معين من مجالات الحياة، و تخضع لعدة معايير، وقواعد، و من بينها العائلة الواحدة، و أماكن العمل .

5) **العمليات الاجتماعية:** يقصد بها عدة تغيرات، و تفاعلات ينتج عنها أنماط سلوكية متكررة.

6) **النسق الاجتماعي:** يعرف النسق الاجتماعي بأنه عدة عناصر تتفاعل مع بعضها، و كل منها يحقق وظيفة معينة في منظومة النسق العامة

هوامش المحاضرة:

1- أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، ط$_1$، 1970.

2- حسن الحاج حسن: علم الاجتماع الأدبي، الدار الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت (لبنان)، ط$_1$، 1983.

3- ريتشارد أوزبرن وبون فان لون، تر: حمدي الجابري: أقدم لك علم التاريخ، منشورات المجلس العلى للثقافة، القاهرة (مصر)،ط$_1$، 2005.

4- ريمون آرون: المجتمع الصناعي، تر: فكتور باسيل، دار عويدات للطبع والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، 1965.

5- عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، منشورات عالم المعرفة، الكويت، 1981.

6- خليل أحمد خليل: المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط$_1$، 1981.

7- مهنا حداد: مداخل إلى العلوم الاجتماعية، دار المجدلاوي، عمان (الأردن)، 1991.

8. Auguste comte : the positive philosophy, Vol :01, George Bell, London, 2000.
9. A.compte : opuscules de philosophie sociale Bibliothèque paulémile, Chicoutimi 2002.
10. Emile Durkheim : les Règles de la méthode sociologique, Chicoutimi, Québec, 6^{éme} Edition, 1906.
11. M. Grawitz: Méthodes des sciences sociales, Dalloz ; Delta, 10^{éme}éd, 1996.
12. Xavier Molénat : La Sociologie, Histoire, idées ; courants, Sciences humaines éditions, paris, 2009.

موضوع علم الاجتماع

تقديم:

يعكس تحليل التراث والأدبيات لعم الاجتماع عن تعدد نوعية الموضوعات التي يهتم بها هذا العلم منذ نشأته الأولى نظرا لتنوع هذه الموضوعات حسب إهتمامات الباحثين و العلماء.

فيكاد يجمع علماء الاجتماع على أن علم الاجتماع هو **دراسة المجتمع في ظواهره ونظمه وبنيته والعلاقات بين أفراده دراسة علمية وصفية تحليلية**، ولكن ميدانا واسعا كهذه السعة قد يصبح من العمومية التي تقضي على شخصية العلم وتسيئ إليه ، وغنى عن البيان أن علم الاجتماع لايمكنه أن يشق طريقه نحو الإرتقاء إذا أقحم نفسه في مجالات متعددة تتصل بجميع نواحي الحياة وشؤون المجتمع.

لذلك يشير "زيمل" الى أن نطاقات وحدود السوسيولوجيا، كما إنبثقت في القرن التاسع عشر، تتميز بالغموض وإنعدام الدقة، ويعبر عن إمتناعه من إفراغ كل العلوم التاريخية والاجتماعية والنفسية في إناء ضخم واحد يحمل إسم "سوسيولوجيا" والإفلات من هذا الوضع العقيم يجب تقديم تصور واضح للمجال الاجتماعي وفكرة دقيقة عن منهج السوسيولوجيا، فاذا أرادت السوسيولوجيا أن يكون لها موضوع مستقل يجب عليها أن تتخلى عن الطموح الى أن تكون علم كل الظواهر الاجتماعية، فتعريف السوسيولوجيا بأنها "**علم كل ماهو بشري**" لن يجعل منها سوى إسم آخر للعلوم الأخرى التي تدرس الإنسان، كتاريخ الحضارات، والإقتصاد السياسي، علم الأخلاق وعلم الأديان، والجماليات، وعلم السياسة والديمغرافيا وغيرها، وذلك لأن المواضيع التي تدرسها هذه العلوم الإنسانية موجودة في المجتمع.[1]

وهذا ماجعل علماء الاجتماع يحاولون تحديد موضوع هذا العلم –علم الاجتماع- فانقسموا في هذا الخصوص إلى ثلاثة فرق:

الفريق الأول: ويذهب أصحاب هذا الفريق إلى أن موضوع علم الاجتماع هو دراسة **العلاقات الاجتماعية**، ويعرف أصحاب هذا الفريق بأصحاب "**مدرسة العلاقات**" ويتزعم هذه المدرسة المفكر الألماني " جورج زيميل" و "ماكس فيبر ".

ويبني هذا الفريق رأيه بصفة عامة على أساس الفصل بين شكل العلاقات الاجتماعية ومضمونها فإذا درست من حيث شكلها (أي طبيعتها الصورية) كانت موضوع علم الاجتماع، أما إذا درست من حيث مضمونها كانت موضوعا لعلم آخر، لأن العلاقات التي تنشأ بين أفراد كالتنافس، والخضوع، وتقييم العمل، والصراع، موجودة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، فهناك تنافس وصراع في الشؤون الإقتصادية والسياسية وبين المعتقدات الدينية، وهناك خضوع في الأسرة وفي بيوت العبادة وفي دور القضاء، ووظيفة علم الاجتماع هو تحليل المظاهر المختلفة للعلاقات الاجتماعية حتى تتعرف على خصائصها ومقوماتها تم محاولة تفسيرها في صورتها المجردة بعيدا عن مضمونها الاجتماعي.

لذلك نجد " زيمل" هو أحد رموز هذه المدرسة يعبر عن موضوع علم الاجتماع؛ **بعلم إجتماع التفاعلات** " une sociologie des interactions" أو مايعرف بالألمانية (wechselwirkung) القائم على شبكة العلاقات الاجتماعية والحياة داخل المجتمع، وتنقسم التفاعلات إلى: **عابرة فورية**: يلعب فيها الجانب الجسدي عنصرا ضروريا في تشكيل السلوكات، كما يمكنها أن تكون **دائمة** : وهي أساس العلاقات التبادلية بين الأفراد تنظيم معين (الصداقة، الغيرة، التكتل، التحالف، الصراع، المنافسة على السلطة، اللياقة ، أو أي شيئ للإعتلاء على الآخرين) وتتجسد بالخصوص عن طريق التأكيد عن فاعلياتها أو قواعدها أو تخطيطها الرسمي.[1].

(1) جورج زيمل: تر: حسين أجيج: الفرد والمجتمع، المشكلات الأساسية للسيسيولوجيا، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة(مصر)، ط1، 2017،ص ص 25-26.

(1) G.simmel: le domaine de la sosiologie, sociologie et épistemologie, presses universitaires de france,1981, p90.

كما دعى "زيمل"، أيضا، إلى سوسيولوجية **الأشكال الاجتماعية** " une sociologie des formes sociale" ولا يهتم "زيمل" بالمجتمع والفرد في حد ذاته إنما بالمستوى الإنتقالي الناتج عن التفاعل بينهما وهو مايسميه " **الأشكال الاجتماعية**" التي تعتبر نتيجة الأنشطة والأفعال المتبادلة بين الأفراد، والأمثلة التي يختارها لذلك جد متعددة: كالفن، الدين، الموضة، فهو يمس مجالا للدراسة عادة مايتردد للمتخصصين في علم النفس، يتمحور حول العلاقات الحميمية (الحب، المعاناة، السر، الكذب).[2]

في حين يحدد **ماكس فيبر** موضوع علم الاجتماع في: **دراسة الأفعّال الفردية ضمن نسق اجتماعي معين بالتركيز على علاقات <u>التأثير والتأثر</u> ودراسة مختلف أنماط التفاعل الاجتماعي في علاقته مع بنية المجتمع**.

ففيبر يركز على دراسة الفرد الفردي المجتمعي ضمن سياقه التأويلي، بمعنى دراسة الفعل الاجتماعي الهادف، ومن تم لايكون الفعل فعلا اجتماعيا الا اذا كان يحمل في ذاته معنى أو هدف ما وكان له تأثير في سلوك الآخر الذي يعيش في المجتمع نفسه، أي هناك علاقة تأثر وتأثير في إطار التفاعل الاجتماعي وتعبير آخر يؤثر الفرد في مجتمعه بأفعاله وسلوكياته وأعماله وفي الوقت نفسه يتأثر بذلك المجتمع على الصعيد القانوني والمؤسساتي.[3]

وقد كانت آراء هذا الفريق في جملتها عرضة للإنتقادات التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- أن تجريد العلاقات الاجتماعية من تجسداتها الاجتماعية، ومحاولة دراستها مجردة ينزع منها صفة الوجود المستقل " الشيئية " بحيث لا تصلح أن تكون موضوعا للدراسة والبحث.
- ثم ان تجريد العلاقات من مضمونها، وردها إلى عناصر أولية مجردة تخترق وحدة العلاقات وتقطع أصولها، لأن من طبيعة العلاقات (كظواهر إجتماعية) المترابطة والمتداخلة وهي دائمة التفاعل والتغير وعلى ذلك فإن العلاقات الاجتماعية لا تهتم إلا بدراستها مترابطة.
- إن دراسة العلاقات بشكل مجرد لايتيح لنا الوصول إلى قواعد أو قوانين عامة، فالخضوع الموجود مثلا في الأسرة يختلف عن خضوع الأفراد للدولة كما يختلف عن خضوع الأفراد في دور العبادة فكيف يمكن الوصول إلى قانون يحكم مظاهرة الخضوع في حد ذاتها ما لم يتم دراسة هذه الظاهرة في وسطها الجمعي، وتبحث داخل الحالات التي تحدث فيها، أما داسة ظاهرة الخضوع بصورة مجردة من الواقع فإنها فكرة فلسفية خيالية لاتعبر عن وجهة نظر أصحابها أكثر من تعبيرها عن حقائق الحالات الاجتماعية.[4]

وقد كانت هذه الإنتقادات سببا في إنقسام هذا الفريق إلى إتجاهين:

- **الإتجاه الأول**؛ أصر على الموقف العام، ولازال يدرس العلاقات الاجتماعية مجردة.

-**الإتجاه الثاني**؛ ونميز فيه رأيين، أولهما: يرى دراسة العلاقات الاجتماعية الثابثة والمنظمة فقط كما هي كائنة في الواقع، وتانيها: يرى دراسة العلاقات الاجتماعية الثابثة وغير الثابثة، المنظمة وغير المنظمة؛ لأن مثل هذه الروابط غير الثابثة وغير المنظمة ستصبح في المستقبل مستقرة. واصحاب هذا الرأي يدرسون العلاقات أيضا كما هي في الواقع أي دون تجريد.

الفريق التاني: ويذهب هذا الفريق إلى ضرورة قيام علوم إجتماعية جزئية بجانب علم الاجتماع يتناول كل منها دراسة ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية على أن تقتصر وظيفة علم الاجتماع العام على وضع المبادئ العامة وتصوير السمات العامة للحياة الاجتماعية، وتنسيق النتائج ووضع مناهج البحث، ويشبه هذا الفريق- علم الاجتماع- بشجرة كبيرة جذورها في أرض المجتمع وساقها هو" علم الاجتماع العام"وفروعها وأغصانها هي العلوم الاجتماعية الفرعية، وثمارها هي القوانين الاجتماعية، وعلى ذالك فإن علم الاجتماع يحقق وظيفتين رئيسيتين:

---

(2) Boutefnonuchet mastefa: initroductio a la sociologie, les fondatour, opu, alger, 2004, p55.

(3) لوزن فلوري: محمد علي مقلد: ماكسن فيبر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت (لبنان)، 2008، ص24.

(4) أحمد رأفت عبد الجواد: مرجع سابق،ص24

- ✓ دراسة كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية، والتعمق في بحث ظواهرها للوصول إلى القوانين التي تحكمها عن طريق العلوم الاجتماعية الفرعية.
- ✓ دراسة المقومات الأساسية للحياة الاجتماعية، والسمات العامة للعلاقات الاجتماعية والقوانين المنظمة لها، والقوى المؤثرة في تقدم المجتمع وتطوره.

ومن أنصار ممثلي هذا الفريق مجموعة من كبار علماء الاجتماع أمثال "إيميل دوركايم" و"جنزبرغ Ginsberg" و"سمول small" "ووارد ward" و"هيهورز houbhourse" وغيرهم.

أما ايميل دوركايم فقد سعى لإعطاء علم الاجتماع موضوع خاص والذي بحسبه يجب أن تميزه عن التخصصات الأخرى الموجودة مثل: علم النفس، التاريخ، الاقتصاد. فبالنسبة لايميل دوركايم فتفرد علم الاجتماع يكمن في **دراسة الو اقعة الاجتماعية التي لا يمكن ردها بسبب ميزاتها الخاصة الى حقيقة سيكولوجية والتي تستوجب بحثا نوعيا**.[1]

في حين يحدد "ألبيون سمول albion small" ستة عوامل أساسية بإعتبارها العوامل المحفزة للسلوك البشري بتواجدهم في الحياة الاجتماعية، فالبشر يتصرفون من أجل **الصحة أوالثراء** أو **الترابط الاجتماعي** أو **المعرفة** أو **الجمال أوالتضامن** أو توليفه من هذه الأمور، وعلى الرغم من كون هذه الفكرة مثيرة حازت على بعض الإهتمام عبر السنين كنظرية مرشحة في مجال علم الاجتماع العام، إلا أنها لم تهتم في الواقع. [2]

وفي الواقع تظل آراء هذا الفريق أكثر واقعية وتعبيرا عن طبيعة علم الاجتماع وطبيعة الموضوعات التي يقوم بدراستها وبحثها.

الفريق الثالث: أنصار وعلماء هذا الفريق لايمثلون إتجاهات محددة، ولكن آراءهم تعبر عن وجهة نظرهم الخاصة، فمنهم من يذهب إلى أن موضوعه هو دراسة **النظم الاجتماعية**، ومنهم من يرى أن العلم يجب أن يدرس **التغير الاجتماعي**، ومنهم من يذهب أن موضوع علم الاجتماع هو دراسة **المقومات التي تدفع بالمجتمع إلى التطوروتؤدي إلى الوحدة** والتأليف بين أفراده.[3]

و نحن هنا، سنحاول أن نقدم موضوع علم الاجتماع طبقا للتطور التاريخي وتصور علماء الاجتماع له، ثم نوضح بصورة عامة أهم الموضوعات التي يتفق حولها علماء الاجتماع في الوقت الراهن.

فموضوع علم الاجتماع حسب تصور علماء الاجتماع المؤسسين الأوائل بدءً من خلدون، فقد حدد مهمة علم العمران البشري وجعل موضوع هذا **العلم دراسة المجتمع الإنساني ككل**، إلا أنه صنف مجموعة فرعية من موضوعات هذا العلم وهي:

- ✓ العمران البشري بصورة عامة، ويشمل دراسة التجمعات البشرية.
- ✓ العمران البدوي، ويشمل دراسة القبائل والأمم الوحشية.
- ✓ الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية.
- ✓ العمران الحضري والبلدان والأمصار .
- ✓ البضائع والمعاش والكسب وأنواعه.
- ✓ دراسة التغير الاجتماعي.

أما بالنسبة لـ "أوجست كونت" (1798-1857) والذي أعطى إسم أو تسمية لعلم الاجتماع، فقد كرس المزيد من هذه للتعبير عن آمال هذا العلم ولتأكيد دعواه، فإهتم بذلك أكثر من إهتمامه بتحديد موضوع العلم، الذي كان يرى أن علم الاجتماع ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما : "**الإستاتيك الاجتماعية social static**" و"**الديناميكية الاجتماعية social dynamics**" وكان يعالج موضوع علم الاجتماع على هذا الأساس، ويمثل هذان المفهومان تقسيما أساسيا لموضوع علم الاجتماع مازال يبدو في صور ومظاهر عديدة متباينة على إمتداد تاريخ هذا العلم وحتى يومنا هذا وتمثل الوحدات الرئيسية للتحليل السوسيولوجي

---

(1) فيليب ريتور: تر: محمد جديدي: الدروس الأولى في علم الإجتماع، منشورات الإختلاف، (الجزائر)، ط1، 2015، ص28.

(2) Gerge edgou vincent :an introduction to the study of society , american book, new york,1984,p96.

(3) مصطفى الخشاب: دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، (مصر)، 1984، ص55.

النظم الأساسية أو الوحدات التنظيمية المركبة للمجتمع، كالإقتصاد أو الأسرة أو السياسة، ويفهم علم الاجتماع في هذه الحالة على أنه دراسة العلاقات المتبادلة بين هذه النظم، ويقول "كونت" في هذا الصدد: **"يتمثل الجانب الإستاتيكي لعلم الاجتماع في دراسة قوانين الفعل ورد الفعل التي تخضع لها مختلف أجزاء النسق الاجتماعي"**.[1]

وأطلق "كونت" على القسم التاني لعلم الاجتماع إسم الديناميكا الاجتماعية، فإذا كانت الإستاتيكا هي دراسة كيفية تداخل أجزاء المجتمع وتفاعلها مع بعضها البعض فإن الديناميكا يجب أن ترتكز على المجتمعات كاملة، وتتخدها وحدة التحليل السوسيولوجي، والهدف من ذلك أن توضح كيف تطورت هذه المجتمعات وتغيرت عبر الزمن، فقوانين الديناميكا الاجتماعية تبدوا أكثر وضوحا عندما تنظر إليها في ضوء مجتمعات كبيرة، كما أن الدراسة المقارنة للمجتمعات يوصفها كيانات كلية تمثل موضوعا رئيسيا من موضوعات التحلبل السوسيولوجي عند "كونت".

أما بالنسبة لـ "**هربرت سبنسر**" (1820- 1903) فيمثل مؤلفه "أسس علم الاجتماع" الواقع في ثلاث مجلدات والمنشورات عام 1877 أول دراسة شاملة كرسها صاحبها لإستعراض موضوعات التحليل السوسيولوجي، وقد كان "سبنسر" أكثر دقة كثيرا من "كونت" في تحديد موضوعات علم الاجتماع، وهذا ماكتبه في المجلد الأول من كتابه أسس علم الاجتماع: " **يتعين على علم الاجتماع أن يصف كيفية تطور الأجيال المتشابهة من الوحدات المدروسة، ونموها وإعدادها للتعاون، ولذلك يأتي موضوع تطور الأسرة في المقام الأول، ثم يتعين على علم الاجتماع بعد ذلك أن يصف ويفسر نشأة وتطور التنظيم السياسي، الذي ينظم شؤون المجتمع، والتي تفرض عليهم ضوابط معينة في بعض معاملاتهم في بعضهم البعض، كما يتعين عليه بالمثل أن يصف تطور الأبنية الكنسية ووظائفها ونسق الضوابط الذي ينظم الأفعال الصغيرة، كما يجب أن المراحل التي مربها القطاع الصناعي في المجتمع، وكذلك نمو الأبنية التنظيمية التي إستطاع ذلك القطاع الصناعي أن يطورها في داخلة**"[2]

وهكذا أن يتضح لنا أن موضوع علم الاجتماع كما حدده "سبنر" يتضمن عناصر مألوفة وربما كان علينا أن نترجم هنا وهناك مصطلحا معينا من اللغة التي كان يستخدمها "سنبسر" إلى لغتنا المعاصرة، فمن الواضح مثلا أنه عندما يتكلم عن نسق الظواهر إنما يقصد الموضوع الذي نطلق عليه اليوم في علم الاجتماع المعاصر إسم **الضبط الاجتماعي** وليس هناك أية صعوبة في أن نتبين الصلة التي تربط موضوع علم الاجتماع، كما يحدده علماء الاجتماع المعاصرون، بالخطوات العريضة التي يحددها "سبنر" فإذا تتبعنا ترتيب الموضوعات في العبارة التي إقتبسناها من "سبنر" وجدنا أن حقول علم الاجتماع عنده هي: الأسرة، الدين، الضبط الاجتماعي، الصناعة، المجتمعات المحلية، تقسيم العمل، التباين، دراسة الفن والجماليات.

بعد الإشارة إلى موضوع علم الاجتماع، حسب تصور بعض رواده الأوائل، نسجل أن تحليلات علماء الاجتماع المعاصرين لم تخرج بعيدا عن نطاق هذه الموضوعات ولاسيما أنها ترتكز على دراسة المجتمع الحديث. ونظرا لصعوبة عرض تصورات جميع العلماء المعاصرين والمحدثين حول طبيعة موضوعات علم الاجتماع، إلا أننا نحاول عرض الموضوعات، كما يتفق حولها معظم علماء الاجتماع في الوقت الراهن كما يلي:

- **التحليل السوسيولوجي:**
  - الثقافة الإنسانية للمجتمع.
  - المنظور السوسيولوجي.
  - المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية.

- **الوحدات الأولية للحياة الاجتماعية:**
  - الأفعال والعلاقات الاجتماعية.
  - الشخصية الفردية.

---

(1) H.matineau : the positre philosoply of Auguste comte, blanchand, new york, 1938, p457.

(2) (1) Herbert spencer : the principles of sociology, vol 01, appelton and company, New york, 1915, pp 439-440.

- الجماعة أو السلالات والتطبقات الاجتماعية.
- المجتمعات المحلية (الريفية والحضرية).
- الهيئات والمنظمات.
- السكان.
- المجتمع.

- **النظم الاجتماعية الأساسية:**
  - الأسرة والقرابة.
  - النظام الإقصادي.
  - النظام السياسي والقانوني.
  - النظام الديني.
  - النظام التربوي والتعليمي.
  - نظام الترويج والدعاية.
  - النظام الجمال التعبيري.

- **العمليات الاجتماعية الأساسية:**
  - التباين والترتيب الطبقي.
  - التعاون والتوافق والتمثيل.
  - الصراع الطبقي.
  - الإتصال والرأي العام.
  - التنشئة الاجتماعية.
  - الإنحراف الاجتماعي والجريمة والإنتحار.
  - التكامل الاجتماعي.
  - التغير الاجتماعي.[1]

وعموما يمكن الإشارة إلى الأفكار الرئيسية التي تدور حولها الموضوعات السابقة لعلم الاجتماع سواءً أكانوا من رواد العلم التقليديين أو المعاصرين فيمايلي:

- **الجماعات الاجتماعية social groups**: وهي الأنماط والأفعال الاجتماعية وأهدافها وتشمل هذه العمليات نمادج مختلفة من التعاون، التناسق، الصراع، التكيف وغيرها.

- **الثقافة culture**: وهي مجموعة العناصر المادية والامادية والنتائج العام للفكر والحضارة الإنسانية وتشمل أنماط التفكير والعلوم والفنون والآداب والتكنولوجبة.

- **الشخصية personality**: وتشمل دراسة موضوع التفاعل ودراسة السلوك الفردي والجماعي ونمادج العلاقات المتداخلة بين الأفراد وكيفية تكوينها وتغييرها وتتكييفهافي المجتمع.

- **التغير change** : ويعتبر هذا الموضوع هو جوهر إهتمام علماء الاجتماع لأن التغير هو القانون الذي يفسر حياة المجتمعات وتطورها، وتشمل دراسة التغير جميع جوانب الحياة الاجتماعية وبناءاتها ونظمها ومؤسساتها المختلفة.[1]

(1) Alex inkeles : what is socilogy, an introduction to the descipline and profession, prentich, new yourk, 1964, p42.

(1) محمد عاطف غيث : علم الإجتماع، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، 1995، ص ص 36-37.

من الناحية العملية لقد شملت الأفكار العامة والموضوعات السابقة لعم الاجتماع العديد من الموضوعات الفرعية التي قد تندرج تحتها، والتي كشفت عن كتابات متعددة أخرى إهتمت بتصنيف موضوعات علم الاجتماع التي تعكس الكثير من مجالات وفروع علم الاجتماع المتخصصة والتي ظهرت بصورة واضحة خلال النصف التاني من القرن العشرين.

والخلاصة التي يمكن أن يخرج بها بصفة عامة من خلال عرضنا لجملة من المواضيع حسب تصورات ومدارس جملة من علماء الاجتماع، هي القول أن علم الاجتماع علم وصفي تقريري موضوعه دراسة شؤون الحياة الاجتماعية من ظواهر ونظم وعلاقات دراسة علمية تحليلية مقارنة بتفسير ماهو واقع وليس لبيان مايمكن أن يكون.

مراجع المحاضرة:

1- جورج زيمل: تر: حسين أجيج: الفرد والمجتمع، المشكلات الأساسية للسيسيولوجيا، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة(مصر)، ط1، 2017.

2- فيليب ريتور: تر: محمد جديدي: الدروس الأولى في علم الاجتماع، منشورات الإختلاف، (الجزائر)، ط1، 2015.

3- لوزن فلوري: محمد علي مقلد: ماكسن فيبر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت (لبنان)، 2008.

4- مصطفى الخشاب: دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، (مصر)، 1984.

5- محمد عاطف غيث : علم الاجتماع، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، 1995.

6- Alex inkeles : what is socilogy, an introduction to the descipline and profession, prentich, new yourk, 1964.

7- Boutefnonuchet mastefa: initroductio a la sociologie, les fondatour, opu, alger, 2004.

8- Herbert spencer : the principles of sociology, vol 01, appelton and company, New york, 1915.

9- H.matineau : the positre philosoply of Auguste comte, blanchand, new york, 1938.

10- Gerge edgou vincent :an introduction to the study of society , american book, new york,1984.

11- G.simmel: le domaine de la sosiologie, socilogieet, ébistemologie, passes universitaires de france,1981.

رواد علم الاجتماع

تقديم:

إن ظهور علم الاجتماع كنسق علمي وفكري متميز لم يكن وليد الصدفة، فقد كان ثمرة جهود مجموعة من العلماء والفلاسفة اللذين حاولوا الوصول بحركة التاريخ إلى نهايتها المتصورة، من أجل صياغة الحياة الاجتماعية لدى البعض، والرغبة في الإصلاح الاجتماعي المتدرج، وعلاج الفوضى التي سادت المجتمع الفرنسي بعد الثورة الفرنسية لدى البعض الآخر، فقد سعوا جميعا إلى إنماء نظريات عامة تلائم البني الاجتماعية لمجتمعاتهم.

كل ذلك ما نحاول تناوله في هذا المحور أين نستعرض أهم قضايا وأفكار الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع، بدءا بابن خلدون الذي يختلف إسهامه عن بقية المؤسسين لأنه لم يتحيز أو يدافع عن مصالح طبقة أو فئة معينة، لننتقل إلى أوجست كونت وكارل ماركس وماكس فيبر وصولا إلى ايميل دوركايم، أين حاول كل واحد من هؤلاء تقديم نموذج أو أكثر للمجتمع والإنسان، لنصل في الأخير إلى تشكيل رؤية، ولو بسيطة، عن المعالم واللبنة الأولى التي أنشأها هؤلاء المؤسسين ليقدموا لنا علم وتخصص أكاديمي يدرس في الجامعات، ووضع نماذج تصورية لمختلف النظريات الاجتماعية، وكل ذلك ليصبح لدينا معرفة بكل ماله علاقة بمجتمعنا وما يحاط بنا.

1- ابن خلدون:

هو عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن خلدون، ويعود نسبه إلى حضرموت من عرب اليمن إلى وائل إبن حجر الصحابي الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فبسط له رداءه وأجلسه عليه ودعى له، ذكر إبن خلدون نسبة على هذا النسق، وقال: لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة.[1]

ولد إبن خلدون في تونس في غرة رمضان (732هـ-808) الموافق (1332-1406م) فهو أندلوسي الأصل أمازيغي النشأة.[2]

تخرج من جامع الزيتونة وقد كان مثقفا موسوعيا ملما بكل المعارف والعلوم والفنون والآداب المعروفة في عصرهّ، برع كثيرا في علم التاريخ وفلسفته، بل يعد، في الحقيقة، مؤسس علم الاجتماع –العمران البشري- قبل أن ينسب إلى "سان سيمون" أو "أوجست كونت" وقد كان ابن خلدون قريبا من الملوك والحكام والسلاطين في الأندلس والمغرب والجزائر وتونس ومصر، وقد عانى الكثير من جراء أحابيل السلطة ومكانتهما، وقد مارس القضاء في مصر إبان عهد المماليك، وعايش فترة المغول وأستوعب تاريخ العصور الوسطى بشكل جيد مما ساعده ذلك على صياغة نظرية العمران البشري واستجلاء نظرا له أطوار الدولة.[3]

وقد كان ابن خلدون في بحوث مقدمته سابقا لعصره وتأثر به عدد كبير من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده مثل: الإيطالي فيكو والفرنسي جان جاك روسو.[4]

وقد ألف ابن خلدون مجموعة من الكتب والمصنفات أهمها: كتاب: **مقدمة ابن خلدون** وكتاب: **تاريخ ابن خلدون** المسمى: **بكتاب العبرودیوان المبتدأ والخبرفي أيام العرب والعجم والبرر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**،وكتاب **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا**.[5]

فقد أدرك ابن خلدون منذ بدء مقدمته أنه يقوم بمحاولة غير مسبوق إليها وهي تأسيس علم الاجتماع أو ما أسماه بعلم **العمران البشري** أو الاجتماع الإنساني وفي هذا نقول: "**وكأن هذا العلم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران**

---

[1] محمد الخضر حسين:حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة (مصر)، 2013، ص9.

[2] محمد عنان: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط4، 2006، ص16.

[3] شفيق الجيوري :علم الاجتماع المعرفة عند ابن خلدون، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2012، ص150.

[4] محمد شهاب: رواد علم الاجتماع، دار الكتاب العربي، القاهرة (مصر)، 2012، ص13.

[5] ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط1، 2004، ص12.

البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من عوارض وأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا"

ما علم العمران؟

حدّد ابن خلدون علم العمران، إذ قال، في معرض تبويب تاريخه: " الكتاب الأول: في العمران، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب"[1] فعلم العمران إذاً موضوعه هو **العمران البشري أو الاجتماع الإنساني**. وله مسائل وهي ما يلحق هذا العمران من عوارض ذاتية، وقد ميّز ابن خلدون بين ثلاثة أنواع من العوارض: بين **ما لا يمكن حدوثه في المجتمع**، وبين **ما هو نادر الوقوع**، وبين **ما هو ذاتي طبيعي مقارن له ضرورة**. قال ابن خلدون:"**ننظر في الاجتماع البشري، الذي هو العمران، ونميّز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضاً لا يعتد بدّ به، وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك، كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب، بوجهٍ برهاني لا مدخل للشك فيه**".[2]

فعلم العمران إذاً علم اجتماع، وابن خلدون أول من رسم لهذا العلم ملامح واضحة. ويمكن أن نذكر بعض ما جاء به في علم العمران من مسائل يدرسها علم الاجتماع في الآتي:

- **أثر الجغرافية في المجتمع، في العقول والأجسام والأخلاق**.
- **أثر الاقتصاد في المجتمع**: البداوة فقر والحضارة غنى. فقر البدو سلامة الخلق، وخشونة بأس، وغنى الحضر ترف وضعف خلق وبأس.
- **صلات التاجر بالشاري، والمعلّم بالمتعلّم، والراعي بالرعية، وعدد السكان بالكسب...**

وقد اعتمد ابن خلدون في دراسته للمجتمعات العربية البربرية على:

- ملاحظة الظواهر الاجتماعية في المجتمعات التي زارها وعاش بين أهلها.
- تعقب الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها، ولكن في العصور السابقة لعصره.
- تعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها.
- المقارنة بين هذه الظواهر جميعا والتأمل في مختلف شؤونها، للوقوف على خصائصها، وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والمجتمعات، وعلل اختلافها وقوانين تطورها.
- استخلاص القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر.

ومن الظواهر المميزة التي اهتم ابن خلدون بمعالجتها المراحل التطورية للدول والحضارات الإنسانية فيما يعرف بنظرية الدورة التاريخية لابن خلدون، وتحليله لنشأة السلطة وتطورها فلا يمكن تأسيس الدولة إلا بالقوة والإتحاد والعصبية القبلية ومراعاة النسب والتشبث بالعقيدة، كما قدم ابن خلدون جغرافيا اجتماعية ، وقد ربط العمران بالمناطق المعتدلة والمناخ المعتدل، وهذا يعني أن التجمع البشري مرتبط بالأراضي الخصبة والمياه الجارية واعتدال المناخ.

كما يركز ابن خلدون على الصراع بين الأفراد في تفسيره لعملية التغير الاجتماعي معللا بذلك مجموعة من الأمور وهي:

- الإنسان مدني بطبعه تنجم هذه الحالة عن حاجة مزدوجة للكائن البشري: **الغذاء والدافعية**.
- أن الله هو الذي كون الإنسان على هذا النحو : **النمو- الحاجة- الاجتماع**.
- يحمل البشر بقايا من تكوينهم الحيواني السابق هي: **العدوانية**.

(1) يوحنا قمير: فلاسفة العرب، ابن خلدون، دار المشرق ، بيروت ط3، 1997، ص35

(2) المرجع نفسه، ص36.

- إذا فلا بد لهم من وازع يحميهم من أنفسهم وله سلطة القهر.
- لكن مسألة من سيكون الحاكم ومن سيكون المحكوم يستلزم ظهور العصبية ابتداءً من صلة الرحم وانتهاء بالرابطة المعنوية.
- ومن واقع حميمية عصبية قوية على بقية العصبيات الأخرى ضمن مجموعات جغرافية واثنيه ولغوية وثقافية محددة ظهر الملك.
- وبما أن القوة عنصر لازم وغير كافي للملك فكان لابد من رابط إيديولوجي أعم من الروابط العصبية فكانت السياسة وكان الدين.
- تنطلق هذه العملية من البادية القاسية الفقيرة باتجاه المدينة حيث الرفه والغناء.
- هذا يعني أن غاية البدوي المدينة، وغاية العصبية الملك.
- هذه الحضارة تحفر قبرها بيدها بواسطة معولي الترف والظلم.
- وهكذا تؤول الحضارة والدولة إلى الموت المحقق على يد عصبية جديدة ما تزال تحتفظ بعناصر شبابها.
- تكرر هذه العملية كل حوالي مائة عام.[1]

كما اهتم ابن خلدون بمعالجة الظواهر العصبية وتحليله لأهم القضايا والمشكلات المرتبطة بها إضافة إلى الكثير من مسائل التربية والتعليم، لذلك نجد ابن خلدون في مقدمته يقسم علم العمران البشري إلى ستة أبواب وهي:

- الباب الأول في العمران البشري.
- الباب الثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية
- الباب الثالث في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.
- الباب الرابع في العمران الحضري والبلدان والأمصار.
- الباب الخامس في الصنائع والمعاش والكسب.
- الباب السادس في العلوم واكتسابها وتعلمها.

ومن هنا تعتبر مقدمة ابن خلدون بحق، عملا موسوعيا قدم لنا فيه بصورة بانورامية كاملة للحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الغربي الإسلامي الوسيط، وهذا ما جعل العديد من العلماء يعترفون صراحة بقيمة كتابات ابن خلدون وتأثيرها على تحليل قضايا سوسيولوجية مهمة لاتزال تشكل اهتمام العديد من علماء الاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد والأنتربولوجيا وغيرها إلى المدى الذي أصبح هناك اعتراض عالمي الآن بدور ابن خلدون في الدعوة إلى إنشاء علم الاجتماع، حيث يقرر عالم الاجتماع الأمريكي "فارد" في كتابه علم الاجتماع النظري: "كانوا يظنون أن أول من قال وبشر بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو منتيسكيو أو فيكو مع أن ابن خلدون قال بذلك وأثبت خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة فقد قال بذلك في القرن الرابع عشر.[2]

كما يعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع والعمران البشري، كيف لا؟ وقد سبق إلى وضع لبنات علم الاجتماع القروي وعلم الاجتماع الحضري، كما وضع أسس الديمغرافيا، والجغرافيا السكانية، وربط أحوال الناس بالمناخ وطبيعة الجو، بل كانت له آراء وجيهة في علم الاجتماع السياسي علاوة على ذلك، فقد ركز ابن خلدون، في الباب الرابع المخصص لنشأة المدن والأمصار ومواطن التجمع الإنساني، على شعبة سماها إميل دوركايم بالمورفولوجيا الاجتماعية" La morphologie sociale " أو علم البنية الاجتماعية" وظن هو وأعضاء مدرسته أنهم أول من عنى بدراسة مسائلها، وأول من فطن إلى خواصها الاجتماعية، وأول من

---

[1] آزاد أحمد علي وآخرون: الفكر الاجتماعي الخلدوني، المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (لبنان)، 2004، ص ص30-31.

[2] علي عبد الواحد وافي: علم الاجتماع، نهضة مصر للطباعة والنشر، دس، القاهرة (مصر)، ص9.

أدخلها في مسائل علم الاجتماع، ولم يدروا أنه قد سبقهم إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون، وأنه قد وقف على هذه الشعبة زهاء بابين كاملين في مقدمته.

علاوة على ذلك، فقد تناول ابن خلدون معظم الظواهر الاجتماعية التي ترتكز عليها السوسيولوجيا، ولاسيما الظواهر السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتاريخية، والدينية، والثقافية والعلمية، والتربوية، ويعني هذا أن كتاب المقدمة يتضمن مجموعة من فروع علم الاجتماع العام مثل: قواعد المنهج في علم الاجتماع، وعلم التنبؤ البشري (الإيكولوجيا) وعلم الاجتماع الريفي وعلم الاجتماع السياسي، وعلم الاجتماع الحضري، وعلم الاجتماع الاقتصادي، وعلم اجتماع المعرفة.

ويكفيه فخرا أنه أرسى دعائم علم الاجتماع تصورا وتطبيقا، ونظر للعمران البشري، وقسم علم الاجتماع إلى أغراض ومواضيع وميادين ومجالات، وسجل منهجية اجتماعية في التعامل مع الظواهر المجتمعية، واستفاد أيضا من علم التاريخ لبناء نظريته في علم الاجتماع والعمران البشري، كما ساهم في تفسير نشأة الدولة بالتركيز على العصبية والعقيدة، وحدد أطوار الدولة وعمرها الزمني والسياسي، وفصل كثيرا في طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تجمع بين الراعي الرعية. [1]

ولا ننسى أن نقول بأن ابن خلدون قد استفاد من الكتابات الاجتماعية السابقة، كما يبدو ذلك واضحا عند الفارابي، والبيروني، وإخوان الصفا، وابن سينا، وابن طفيل، وابن رشد، والغزالي، والبيروني وأبي بكر الرازي، وابن أبي الربيع صاحب كتاب (**سلوك المالك في تدبير الممالك)** وغيرهم.

وفي الأخير، يمكن القول: أن ابن خلدون كان مفكرا حداثيا سبق أبناء عصره بفكره التنويري القائم على العقلانية والتجريب، والتأمل الاستدلالي المنطقي، وفلسفة التاريخ، وعلمنة العمران البشري، والتأرجح بين الاستنباط والاستقراء، والاستعانة بالمنظور العقدي والديني والفقهي والأصولي في التعامل مع الظواهر فهما وتفسيرا وتأويلا.

2- أوجست كونت Auguste comte (1798-1857): فيلسوف فرنسي ولد بمدينة مونمبيليه بعد أن تم دراسته الجامعية شغل وظيفة عميد مدرسة الهندسة، تم عيّن بعد ذلك سكرتيرا لسان سيمون عاونه في إخراج أبحاثه ومؤلفاته إلى حيز الوجود، ويعد من أوائل المؤسسي لعلم الاجتماع الحديث.[2]

يعلن كونت عن نشأة علم الاجتماع بوصفه علما مستقلا بذاته بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية أي دراسة وضعية شأنه في ذلك شأن العلوم الطبيعية والكيمياء والبيولوجيا التي تدرس ظواهرها في ضوء مناهج البحث العلمية فكتب يقول: "لدينا الآخر وأخيرا من الفيزياء، وهو الفيزياء الاجتماعية، ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعا للدراسة باعتبار هذه الظواهر من روح الظواهر العلمية والطبيعية والكيميائية والفيسيولوجية نفسها من حيث كونها موضوعا للقوانين الثابتة.[3]

أكد كونت أن علم الاجتماع آخر العلوم يدخل مرحلة اليقين وتمثل الركيزة الأساسية للنظام الوضعي، فبمجرد أن تصبح دراسة المجتمع بما في ذلك السياسة وضعية، فستتمتع النظرية الاجتماعية بسلطة النظريات الأخرى في العلوم الطبيعية، ويمكن استخدام مبادئها العقلانية في إعادة عالم ما بعد الثورة، وينقسم علم الاجتماع إلى جزأين هما: الثوابت الاجتماعية والديناميات الاجتماعية اللذان غرسا على التوالي مشاعر التضامن مع أفراد المجتمع الآخرين وإحساس تواصل الأجيال الماضية مع الأجيال المستقبلية، وبالتركيز على تنظيم المجتمع تعرضت الثوابت الاجتماعية لدراسة أساس النظام الاجتماعي، واستقصت القيم الأخلاقية والأسرية وبمعالجة تطور المجتمع وتقدمه، تمثل الديناميات الاجتماعية الدراسة العلمية للتاريخ.

ومن جهة أخرى، يعد كونت من رواد الوضعية Positivism الذين أسسوا علم الاجتماع على أسس علمية تجريبية، اعتمادا على الملاحظة، والتجربة، والمقارنة، والتاريخ.

ويعرف كذلك بوضع قانون المراحل الثلاث الذي يتمثل فيما يلي :

---

[1] كلثم علي الغانم وآخران :**موجز تاريخ الفكر الاجتماعي**، سلسلة علم الاجتماع، الكتاب الثاني، الأهالي للتوزيع، دمشق (سورية)، ط1، 2001، ص 188.

[2] فاروق عبد المعطي: أوجست كونت، مؤسس علم الاجتماع الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط1، 1993، ص7.

[3] أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي، دراسات تكاملية للنظريات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت(لبنان)، 1981، ص545.

- **قانون المرحلة الدينية أو اللاهوتية** :كان الإنسان، في هذه المرحلة، يفكر بطريقة خيالية، وإحيائية، وأسطورية، وخرافية، وسحرية، وغيبية، ودينية؛ وكان يفسر ظواهر الطبيعة وفق قوى خفية مصدرها الأرواح والشياطين، والعفاريت، والآلهة ولم يكن هناك أدنى اعتراف بالحتمية التجريبية أو العلمية، فالقانون الوحيد هو الصدفة فقط.
- **المرحلة الميتافيزيقية:** انتقل الإنسان، في هذه المرحلة، من الميتوس والخيال إلى اللوغوس والفكر المجرد وبدأ يهتدي بالتأمل الفلسفي، واستخدام العقل والمنطق،والاستدلال والبرهان ، والحجاج الجدلي، وتواكب هذه المرحلة الفكر الفلسفي الميتافيزيقي من مرحلة الفلسفة اليونانية حتى القرن التاسع عشر؛ قرن التجريب والاختبار والوضعية، وكان الفلاسفة يرجعون الطبيعة إلى أصول ومبادئ كامنة في تلك الظواهر كتفسير ظاهرة النمو في النبات إلى قوة النماء، وظاهرة الاحتراق بإله النار.
- **المرحلة الوضعية:** في هذه المرحلة، تجاوز العقل الإنسان مرحلة الخيال والتجريد، وبلغ درجة كبيرة من الوعي العلمي، والنضج التجريبي. إذ أصبح التجريب أو التفسير منهج البحث العلمي الحقيقي، ثم الارتكان إلى المعرفة الحسية العيانية، وتكرار الاختبارات التجريبية، وربط المتغيرات المستقلة بالمتغيرات التابعة ربطا سببيا في ضوء مبدأ الحتمية أو الجبرية العلمية وتعد هذه المرحلة أفضل مرحلة عند أوجست كونت، وهي نهاية تاريخ البشرية.[1]

وتوافق كل مرحلة من هذه المراحل تطور الإنسان من الطفولة حتى الرجولة؛ إذ تتوافق المرحلة اللاهوتية مع مرحلة النشأة والطفولة؛ وتتماثل مرحلة الميتافيزيقا مع مرحلة الشباب والمراهقة؛ وتتطابق مرحلة الوضعية مع مرحلة النضج والرجولة والاكتمال.

وتبقى هذه الصيرورة التاريخية صيرورة نسبية وإيديولوجية؛ لأن جميع المراحل والمجتمعات الإنسانية قد أخذت بهذه الأنماط التفكيرية الثلاثة حتى لدى الشعوب القديمة، وإذا أخذنا الفكر العربي في العصر الوسيط، فنجد اهتماما كبيرا بالفكر الوضعي التجريبي، وفي الوقت نفسه، كان الفكر اللاهوتي والميتافيزيقي سائدين ومتجاورين في المجتمع جنبا إلى جنب، ثم، لايمكن للفكر أن يتوقف في لحظة معينة كتوقف التاريخ عند فوكوياما، أو توقف المجتمع البشري عند كارل ماركس بوصوله إلى المرحلة الشيوعية، ومن جهة أخرى، فقد ساهمت الوضعية العقلانية في ظهور فلسفات غير وضعية وغير عقلانية، مثل: السريالية، والفرويدية، والوجودية، والتأويلية، والذاتية.

علاوة على ذلك، فقد صنف كونت العلوم إلى ست مجموعات: أولها الرياضيات، ثم الفلك، والفيزياء والكيمياء، وعلم الحياة، وعلم الاجتماع أو الفيزياء الاجتماعية، وبالتالي فالرياضيات مفتاح العلوم جميعا، أما علم الاجتماع فهو آخرها وتاجها جميعا، و"تلك حقيقة، إذ إن الرياضيات هي أول العلوم؛ فقد توصل إليها اليونانيون، ثم تلاها علم الفلك الذي ظهر على يد كوبنيك وكبلر وغاليلو، ثم الفيزياء التي ظهرت في القرن السابع عشر على يد لافوازييه (Lavoisier) ثم علم الأحياء في القرن التاسع عشر عند بيشات (Bichat) وغيره، وأخيرا علم الاجتماع في القرن التاسع عشر على يدي أوغست كونت. [1]

يلاحظ أن أوجست كونت قد صنف العلوم من المجرد (الرياضيات) إلى المحسوس العياني (علم الاجتماع) ووسع النظرية الوضعية لتشمل العلوم الطبيعية والإنسانية، وفي هذا، يقول محمد محمد أمزيان: "مد الروح الوضعية إلى كل مجالات التفكير: الطبيعية والإنسانية، وليست هذه الصعوبات من النوع الذي يصعب التغلب عليه في نظر الوضعية، فقد خضعت العلوم الطبيعة للنظام الوضعي، وحققت في ذلك نجاحا باهرا بعد أن أخرجها من أسر التأملات اللاهوتية والأوهام الميتافيزيقية، وتبقى الخطوة الأخيرة أن يمد هذا النظام ليعم مجال الإنسانيات، وتلك هي مهمة كونت: تحرير الدين والأخلاق والاجتماع، لتصبح في أول مرة في تاريخها علوما يقينية تخضع للملاحظة والتجربة وكشف القوانين التي تخضع

---

[1] بيار مشيري: تر: سامي أدهم: كونت، الفلسفة والعلوم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، ط1، 1994، ص ص24-39.

[1] زيدان عبد الباقي: التفكير الاجتماعي: نشأته وتطوره، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، 1981، ص ص317-318.

لها في صيرورتها وتطورها تماما، كما تم الكشف عن القوانين التي تخضع لها العلوم الطبيعية وبذلك، سيتحقق الانسجام العقلي بعد أن يصبح التفكير الإنساني موحدا لا يقتصر على جانب دون آخر".[2]

وعليه فقد جاءت وضعية أوجست كونت حلا للفوضى التي كانت تعيشها فرنسا إبان انتصار الثورة الفرنسية على الإقطاع، فنتج عن ذلك مجموعة من الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعرف المجتمع انقساما وتفككا وتصدعا وفوضى عارمة. لذلك، حاول كونت أن يوفق بين النظام والتقدم، أو بين رغبات المجموعة المحافظة، ورغبات البورجوازية التي كانت تناصر الثورة. لذا، جاءت الوضعية للدفاع عن النظام والتقدم، وتوظيف العلم لتحقيق أمن المجتمع وسلامته، لكنه لم يوظف الفكر العلمي باعتباره نظرية لتحقيق ذلك، بل استخدمه سلاحا إيديولوجيا ليس إلا، فعلى الرغم من إيمان كونت بالمنهج الوضعي، إلا أنه لم يلتزم أساسياته بل حوله إلى سلاح إيديولوجي، فقد حاول إقصاء الجماهير عن إدارة المجتمع وتنظيمه، وعن رسم السياسة العليا له، على أساس أن هذه الوظيفة هي وظيفة علماء الاجتماع وخبراء التنظيم؛ فهذه الصفوة هي السلطة النهائية القادرة على رسم الطريق الصحيح لتحسين حالة أبناء الطبقات الدنيا، وذهب إلى أنه ليس من حق الجماهير التساؤل عن أشياء تعلو قدراتهم ومؤهلاتهم.

وهكذا يتبين لنا أن وضعية كونت، على الرغم من طابعها العلمي، فهي تحيز واضح إلى ما هو محافظ وساكن وثابت، مع رفض التغيير باسم الثورة، بيد أنها تقبل الإصلاح، وفي هذا السياق، يقول نبيل السمالوطي:" الوضعية في الوقت ذاته فلسفة إيجابية كما يدل على ذلك اسمها (Positivism) والإيجاب هنا يعني قبول الأوضاع الراهنة، والوقوف منها موقف الرضا والتأييد، والعمل على الدفاع عنها ضد أي اتجاه، فالوضعية لم تكن تعارض الإصلاح، بل التغيير ولكن ذلك كله كان يجب أن يتم في إطار ما هو قائم وما هو موجود، محاولة كسر هذا الإطار والثورة عليه كانت مخالفة تماما لروح الفلسفة الوضعية ".[3]

ويعني هذا أن سوسيولوجيا أوجست كونت هي سوسيولوجيا توفيقية تجمع بين الفوضى والنظام من جهة وبين المحافظة والتقدم من جهة أخرى.

وخلاصة القول فلقد اهتمت الوضعية، عند أوجست كونت، بدراسة الظواهر النسبية غير المطلقة بالتوقف عند العلاقات الثابتة بين الوقائع والظواهر، في إطار ترابطها السببي، بغية استخلاص قوانينها وقواعدها النظرية والتطبيقية. ومن ثم، يمكن القول بأن أوجست كونت يعد من أهم مؤسسي علم الاجتماع الوضعي ومن السباقين إلى الأخذ بمنهج التفسير في دراسة الظواهر المجتمعية، بتمثل منهجية الفيزياء والبيولوجيا والفيزيولوجيا والكيمياء في التعاطي مع الظواهر المادية، مع الاعتماد على مجموعة من الخطوات العلمية، مثل: **الملاحظة، والتجربة والمقارنة، والتاريخ.**

3- كارل ماركس:

ولد كارل ماركس يوم 5 مايو-أيار 1818 في مدينة تريفز Trèves التابعة يومئذ لمملكة بروسيا عاصمة ألمانيا الشمالية، وهو الابن الثاني في أسرة ميسورة الحال تنتمي إلى الطبقة الوسطى، وتتكون من تسعة أبناء ينحدر أبوه "هيرشل ماركس" من عائلة يهودية ضمَّت العديد من الحاخامات وتجار مزارع الكروم، اضطر الأب إلى اعتناق البروتستانتية سنة 1816 من أجل التمكن من ممارسة مهنة المحاماة بعد صدور قوانين تمنع ولوج اليهود إلى الوظائف العمومية في ألمانيا، وحوَّل اسمه من "هيرشل" إلى "هانريش"، أما الأم فهي "هنرييت برسبورغ" تنحدر من عائلة يهودية هولندية، وقد بقيت على يهوديتها حتى وفاة والدها الحاخام، ثم اعتنقت المذهب اللوثري عام 1825.

تلقى ماركس تعليمه الثانوي بمدينة تريفز، وانتقل إلى بون عام 1835 لدراسة القانون، ثم إلى برلين في مارس 1836 لدراسة التاريخ والفلسفة بجامعة فريدريش فيلهلم، وشرع في إنجاز أطروحته للدكتوراه عام 1839 حول الفلسفة الإبيقورية، وعمل على

---

[2] محمد أمزيان: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا (الولايات المتحدة الأمريكية)، ط1، 1991، ص 47.

[3] نبيل السمالوطي: الإيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر: دراسة تحليلية للمشكلات النظرية والمنهجية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (مصر)، ط1، 1985، ص140.

دراسة جوانب الاختلاف بين الفيلسوفين ديموقريطس وأبيقور، وقد تخرج بدرجة الدكتوراه سنة 1841 من كلية الفلسفة بجامعة ينا، وهي من أعرق الجامعات الألمانية.

عمل كارل ماركس محررا في صحيفة الراين، وتولى رئاسة تحريرها في أكتوبر-تشرين الأول 1842 لكن الجريدة مُنعت من الإصدار في بداية 1843، ثم عمل بعد ذلك بسنوات مراسلا لصحيفة "نيويورك تريبيون"، وقضى الجزء الأهم من حياته في التأليف والكتابة.

تولى رئاسة فرع الرابطة الشيوعية في بروكسيل سنة 1847، وأسس جمعية العمال الألمان بالمدينة نفسها، وعمل بِمَعِية صديقه فريدريك إنجلز على صياغة بيان الحزب الشيوعي بتكليف من المؤتمر الثاني للرابطة الشيوعية، الذي عُقد بلندن نهاية نوفمبر/تشرين الثاني 1847.

أسس الجمعية الدولية للعمال (الأممية الأولى) عام 1864 لأجل توحيد صفوف الحركة العمالية بأوروبا، وسهر على صياغة رسالتها الافتتاحية، وترأسها من عام 1866 إلى 1872.

توفي كارل ماركس في 14 مارس-آذار 1883 بعد عدة أشهر من المرض، ووُرِي جثمانه الثرى بمقبرة هاي غيت في لندن يوم 17 مارس-آذار 1883.[1]

تأثر ماركس في بداية حياته الجامعية بالفلسفة الهيجلية (نسبة إلى الفيلسوف الألماني جورج فريدريك هيجل) حيث كان يتردد على حلقات الهيجليين الشباب في برلين، لكنه ما لبث أن تأثر أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه بالفلسفات المادية، وكانت النزعة الإلحادية ونقد الدين يطبعان نقاشاته الفلسفية مع صديقيه موزس هس وبرونو باور المتأثرين بأعمال الفيلسوف المادي لودفيغ فيورباخ.

أما العامل الثاني الذي هيأ ماركس لقبول هيجل كان عضويته في "نادي الدكاترة" في جامعة برلين، ففي هذه الحلقة تعرف ماركس على زمرةً متباينة من أتباع هيجل، فقد كان برونو باوور أبرز شخص فيهم، وكانت المشكلات المباشرة التي يعنى بها برونو باور، وجماعة "الهيجليين الشبان" التي تشكلت حوله، تحتفظ بالاهتمام بعلم اللاهوت المسيحي الذي كان ملازماً لكتابات هيجل الخاصة، إن أطروحة ماركس للدكتوراه، التي تعنى بالمناقشة المقارنة لفلسفة ديمقريطس وفلسفة أبيقور، تظهر انطباع أفكار باوور القوي.

فقد شكلت الهيجلية أو الفلسفة الألمانية رافد معرفيا مميزا لتكوين ماركس إضافة إلى السياسة الانجليزية والاشتراكية الفرنسية، لكن في الحقيقة لم يكن ماركس في أي لحظة هيجليا حقيقيا : أولا لأنه لم يتقبل فكرة تواؤم الفكرة مع الواقع، ثم لأنه حتى بعد أن توغل في الهيجلية، لم يكن يرى في الفكرة اكتمالا وتكريسا للنظام القائم، وإنما ذلك المشروع البعيد لنظام مستقبلي يمكّن الإنسان من تحقيق ذاته بالممارسة، بالفعل، بالصراع.[2]

فقد كتب رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها:" إن منهجي في التحليل ليس هو منهج هيجل لأنني مادي وهيجل مثالي، إن ديالكتيك هيجل هو الشكل الأساسي لكل ديالكتيك، ولكن بعد أن يتعرى من صورته الصوفية، وهذا بعينه ما يميز منهجي.[1]

وبذلك بينما تقبل ماركس بشكل عام الفكر الهيجلي عن التاريخ باعتباره يمثل إظهارا لأشكال أسمى من الحرية، فقد سعى إلى تصحيح ما اعتبره السمة الافتراضية للهيجلية، وذلك باللجوء إلى فكرة المراحل المتعاقبة للتطور التاريخي، كما تم إعدادها من قبل الكتاب التنويريين الاسكتلنديين من أمثال فيرغسون وميلر، وبالمثل فعندما قبل ماركس بفكرة هيجل عن العلاقة الجدلية بين السيد والخادم، سعى على الرغم من ذلك إلى ترسيخها من خلال تفسير دقيق لسمات العمل بالأجر، وقد عكف ماركس على كتابات الاقتصاديين السياسيين الكلاسيكيين، وعلى رأسهم ادم سميث ودافيد ريكاردو، بيد أنه سعى إلى تصحيح ما اعتقد انه اختزاليتهم وتحفظهم مستعينا في ذلك بإتقانه المؤثر للأدب الإنساني والكلاسيكي والرومانسي لشرح أرائه، وأخيرا فقد تعلم من

---

[1] جاك أتالي: تر: محمد صبح: كارل ماركس أو فكر العالم، سيرة حياة، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط1، 2008، ص ص 21-22.

[2] روجيه غارودي: الماركسية: تر: محمد الأمين بحري، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009، ص50.

[1] محمد عابد الجابري :من دروس الفلسفة والفكر الإسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 2010، ص91.

الاشتراكيين الفرنسيين ولاسيما فوريه وبرودون ولكنه اعتقد انه خفي عليهم الدروس الحقيقة للصراع الطبقي وللثورة الفرنسية، كما تناوله آبييه سييس في أكثر من موضع في ماهي الطبقة الاجتماعية الثالثة، وبوناروتي في مؤامرة المتساوين.[2]

فماركس أكثر واقعية من الهيجلين والمتتبع لفكره يجد ثلاثة أفكار ظلت تراوده طيلة مشواره العلمي والفلسفي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وهي:

- الوحدة الضرورية بين الفكر والوجود؛ وهي وحدة جعلته يقف منذ البداية تماما ضد التجربة والقطيعة، والنزعة الخيالية الوهمية، وضد عزل الأفكار عن الواقع.
- التطور الجدلي للتاريخ وهو تطور ناجم عن التناقضات الكامنة في كل واقع حي.
- الفكرة القائلة بأن العلة الكافية والهدف النهائي لهذا التطور الجدلي هما المزيد من إضفاء الصبغ العقلانية على الواقع.[3]

فقد حاول ماركس تقديم نظرية منظمة عن البناء الاجتماعي والتغير الاجتماعي، فكان أول عرض لنظرية المادية التاريخية لماركس في كتاب الإيديولوجية الألمانية ولاسيما في القسم الذي يتحدث فيه عن فيورباخ ولكن لا ريب في أنها كانت ستتجدد بصورتها الأكثر إدهاشا وفعالية في البيان الشيوعي الذي كتبه مع فريدريك انجلز ونشر في العام 1848 في عشية الإضرابات الثورية الكبرى لذلك العام، فصاغ بذلك نظريته المعروفة بالماركسية التي ظهرت في سياق تاريخي تميز بالصراع النضالي والجدلي بين البورجوازية مالكة وسائل الإنتاج، والطبقة العمالية صاحبة القوة الإنتاجية، وكان ذلك في القرن التاسع عشر الميلادي، عصر الثورة الصناعية والعمالية، وكان سبب هذا الصراع هو الظلم الذي كانت تعانيه الطبقة البروليتارية؛ من جراء تعسف الطبقة البورجوازية وبطشها وتجبرها وتعنتها، إلى جانب ما كانت تمارسه من استغلال واستلاب ومعاملة سيئة في حق هؤلاء العمال، وطردهم من أعمالهم ووظائفهم ومناصبهم.

فالماركسية فلسفة عمالية بروليتارية راديكالية همها الوحيد هو، وثورية الصراع الجدلي المستمر، والقضاء على البورجوازية الليبرالية، وتجاوز ماهو نظري وديني وروحي إلى ماهو مادي واقتصادي ومجتمعي، والإيمان بالتغيير الجذري الجدلي.[4]

فيبني ماركس التصور السوسيولوجي، للمنظور المادي التاريخي والجدلي، بإقامة مجتمع اشتراكي تسيطر فيه الطبقة البروليتارية على وسائل لإنتاج، ريثما يتحقق الانتقال إلى المجتمع الشيوعي الذي تنعدم فيه الدولة والطبقات، وتشيع فيه الأموال والنساء، وينبني هذا التصور الماركسي على مراحل تاريخية متعاقبة هي: مرحلة انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي؛ ومرحلة التكوين الاشتراكي العالمي؛ ومرحلة الشيوعية، وتحول الدول الرأسمالية إلى دول اشتراكية، ثم الانتقال إلى دول شيوعية.

قدمت الماركسية بناءا على هذا التصور –في ضوء التغيرات في أسلوب الإنتاج وتكوين الطبقات والصراع بينها- تفسيرا عليا للتطور التاريخي للمجتمعات الإنسانية، ولأصول وتطور الرأسمالية الحديثة على وجه الخصوص والتي أمكن التعبير عنها في صورة قوانين تاريخية، وأمكن أيضا في ذلك الوقت الاستنباط من عملية الانهيار الضروري للرأسمالية والتحول إلى الاشتراكية وكان للماركسية استنادا لهذا المظهر كعلم وضعي أثرها على علم الاجتماع أثناء مراحل تكوينه، والذي كانت قد تظهر به كنسق في علم الاجتماع –بمعنى علم عام وشامل للمجتمع- وأثارت ردود فعل كبار المفكرين في علم الاجتماع وتمت الاستعانة بهذا النسق بدوره في تقديرات علم الاجتماع النقدية لأفكاره، وظهرت الماركسية وغيرها من نظريات علم الاجتماع أطر في التفكير متصارعة تتنازع على نفس الميدان.[1]

أنتج ماركس عدة أدوات نظرية وتحليلية، وصاغ جملة من المفاهيم في إطار نقده للمجتمع الرأسمالي ودعوته إلى ضرورة الثورة البروليتارية بُغية التحول إلى الاشتراكية، وسعيه في التأكيد على أن هذا التحول حتمية تاريخية بالإضافة إلى كونه ضرورة.

جاءت تصورات ماركس حول الصراع الطبقي مليئة بالمبالغة أحيانا والمثالية أحيانا أخرى فكيف يمكن إلغاء الملكية وهي شيء سماوي شرعته جميع الأديان ؟ وكيف يمكن إلغاء الطبقات وظهور المجتمع اللاطبقي؟ وهناك تمايز واختلاف بين الأفراد

---

[2] جون سكوت: تر: رشا جمال: خمسون عالما اجتماعيا أساسيا، المنظورون الأوائل، مرجع سابق، ص362.

[3] أوجست كورنو: تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد،أصول الفكر الماركسي، دار الآداب، بيروت (لبنان)، ط1، 1968، ص 89.

[4] هنري لوفير: تر: حبيب نصر الله نصر الله: الماركسية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، 2012، ص76.

[1] توم بوتومور: تر: محمد علي محمد وعبد الرزاق جلبي: نقد علم الاجتماع الماركسي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة (مصر)، 1984، ص ص 41-42.

والطبقات نتيجة لاختلافهم في مستويات الذكاء والطموح والقدرات العقلية والجسمانية والفردية التي تؤكده علوم النفس والاجتماع والاقتصاد.

ويعد كارل ماركس مؤسس اتجاه الصراع الذي هو أحد الاتجاهات الأساسية في النظرية الاجتماعية، وسبب هذا الصراع قائم على المصالح بين الطبقات الاجتماعية حيث اعتبرها ماركس تناقضات داخلية تظهر في المجتمع فالطبقات المالكة لوسائل الإنتاج تكون قادرة على استغلال الطبقات الأخرى لصالحها و الطبقات التي يقع على كاهلها هذا الاستغلال مهتمة بإحداث تغييرات أساسية في هذا النظام، لتضع حدا لاستغلاله، إذا أصبح لدى تلك الطبقات وعي كاف لإحداث ثورة يكون من نتائجها المزيد من التقدم لتكنولوجي.[2]

يرى ماركس أن البناءات الاجتماعية لا توجد أو تنشا بشكل عشوائي فقد أوضح انه يوجد شكل أو نموذج محدد معروف للطريقة التي يتم بها تنظيم الإنتاج للسلع المختلفة أو عملية الإنتاج بشكل عام من قبل المناطق المختلفة بالعالم وفي أوقات مختلفة من التاريخ، وتسمى هذه النظرية المرتبطة بالتاريخ والمجتمع بالمادية التاريخية ويمكن تعريف عناصرها المختلفة.[3]

ويعتقد ماركس أن التطور التاريخي للجماعات البشرية ساهم بشكل فعال في تطور الملكية، وقد حدد لهذه الملكية عدة أنواع ومراحل، فقد تكون الملكية في ظل:

- (الشيوعية البدائية) حيث لا طبقات.
- العبودية (الأسياد والعبيد) حيث طبقتان، و أوضح ماركس بان العبيد تغلبوا على أسيادهم وكونوا طبقة الإقطاع.
- الإقطاع (الإقطاعيون والفلاحين) حيث طبقتان أيضا وهم البرجوازيين الذين أسسوا المدن والفلاحين أتباعهم.
- المرحلة الرأسمالية (الرأسماليون يملكون وسائل الإنتاج والبروليتاريا لا يملكون وسائل الإنتاج) حيث طبقتان أيضا وهي آخر مرحلة فئة الطبقتين.
- الاشتراكية حيث لا طبقات وحيث كل شيء مملوك للدولة.
- الشيوعية وهي المرحلة الأخيرة حيث لا طبقات ولا دولة.

ومن خلال هذه الأنظمة المتعاقبة، توصل كارل ماركس إلى أن المجتمع ينقسم إلى طبقتين: الأولى رأسمالية مالكة لوسائل الإنتاج، والثانية تتمثل في طبقة البروليتاريا الكادحة والتي من شأنها القيام بالثورة ضد الطبقة الأولى لتستعيد مكانتها في المجتمع.

المفهوم الذي كان ماركس مديناً جداً به إلى هيجل، وهو أن الإنسان يخلق ذاته بالتدريج ويعبر ماركس عنه في مخطوطات 1844 بهذه الصورة، كل ما يدعى تاريخ العالَم ليس سوى création خلق الإنسان بالعمل الإنساني.[1]

ويواصل كارل ماركس بأن الإنسان يحاول دائماً التقرب من العيش بالحياة، وهو فيما يفعله في الواقع يقدم مثلاً وقيماً وينشأ كانسان نتيجة الحوار والجدل والتنافس والصراع بين هذه المثل والقيم.

علاوة على ذلك، كلما احتدم التنافس والصراع ظهرت الحكمة كنتيجة، ونتيجة تبادل الرأي يقع التفاهم أو الاتفاق، وعن طريق المنافسة يحل التقدم، وقد أطلق هيجل على عملية تصارع انساق الأفكار اسم العملية الديالكتيكية والتي تشير إلى تنافس قوتين متعارضتين يؤدي هذا التعارض إلى ظهور قوى عديدة نتيجة لهذا الاحتدام بينهما، ويعد نسق الأفكار قوى تاريخية في نظره ذات أهمية خاصة في مسار التاريخ الحضاري.

---

[2] عبد الله محمد عبد الرحمان ،2006، النظرية في علم الاجتماع ،دار المعرفة الجامعية، القاهرة (مصر)، 2006، ص 414.

[3] فيليب جونز: تر: محمد ياسر الخواجة: النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2015، ص 96.

[1] أنطوني جدنز: تر: أديب يوسف شيش، الرأسماليّة والنظرية الاجتماعية الحديثة، تحليل كتابات ماركس ودوركهايم وماكس ڤيبر، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق (سوريا)، 2014، ص28.

وهكذا يمكن القول بأن جدل الديالكتيك عند هيجل هو الذي وضع أساس نظرية الصراع الاجتماعي عند كارل ماركس، فقد حوّل ماركس هذا الديالكتيك من صورته العقلية الفكرية إلى صورته المادية التاريخية التي تشير إلى أن "كل شيء في تغير وتحول وتبدل" أي بدلاً من صراع الأفكار يحل محله صراع الطبقات الاجتماعي بالمفهوم المادي الاقتصادي الاجتماعي للطبقة وليس بالمفهوم الثقافي والنفسي ونجد ماركس نفسه يعترف بذلك في رسالة بعثها عام 1852 إلى شيوعي ألماني يدعى فيدماير كان يعيش بالمنفى بالولايات المتحدة الأمريكية يقول:" فيما يخصني لا يعود لي الفضل في اكتشاف ولا إيجاد الطبقات في المجتمع ولا في الصراع فيما بينها، وإنما يعود الفضل في ذلك إلى مفكرين بورجوازيين من قبلي بكثير، من مؤرخين تبنوا التطور التاريخي لهذا الصراع.[2]

وعليه قام تحليل ماركس على أساس الظروف المادية بعيدا عن القوى الروحية، ومن ثم أسس نظريته الاجتماعية على قوانين ثلاثة هي:

- قانون وحدة الأضداد وصراعها.
- قانون الانتقال من التغير الكمي إلى التغير الكيفي.
- قانون نفي النفي؛ و في هذا الاتجاه، تأثر ماركس بالفيلسوفين الألمانيين هيجل وفيورباخ، معتبرا تطور المجتمعات يسير على مسارين؛ مسار مجرد : وأوضح بأن هناك بناءا تحتيا وهو الاقتصاد (قوى الإنتاج- العمالة وهم الآلة وعلاقات الإنتاج بين مالكي وسائل الإنتاج وقوى الإنتاج)، وبناءا فوقيا وهي النظم الأخرى بالمجتمع كالقيم والدين، ومسار ملموس: وهو وجود طبقتين(الرأسماليين والعمال) وهناك صراع بينهم بناء على فائض القيمة.

وبالتالي فهناك علاقة جدلية بين البناء التحتي و الفوقي، أي بين قوى و وسائل الإنتاج و بين نظم وقيم المجتمع، ثم بين طبقتي المجتمع : الرأسماليين و العمال.

فالمادية الديالكتيكية سميت كذلك لأن أسلوبها في النظر إلى حوادث الطبيعة وطريقتها في البحث أو المعرفة هي ديالكتيكية ولأن تحليلها لهذه الحوادث وتصورها لها هي مادية.

يقول كارل ماركس "إن طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيجلية من حيث الأساس فحسب، بل هي ضدها تماما، فحركة الفكر، هذا الفكر الذي يشخصه هيجل ويطلق عليه اسم (الفكرة) هي فينظره خالق الواقع وصانعه، فما الواقع إلا الشكل الحداثي للفكرة، أما في نظري فعلى العكس ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة إلى دماغ الإنسان ومستقرة فيه".[3]

ومنه فالديالكتيك الماركسي يختلف تماما عن ديالكتيك هيجل سواء في المنهج أو في المضمون فديالكتيك هيجل يقوم على أن المتناقضات التي تنشأ في العقل الجمعي أولا ثم تنعكس على أرض الواقع لكن هذه الجدلية لم تعجب ما ركس وأنجلز، وقال بأن المذهب الهيجلي يمشي على رأسه ولابد أن يعاد إلى توازنه ويمشي على قدميه وبالتالي فكارل ماركس وأنجلز أخذا من جدل هيجل نواته فقط بعيدا عن المثالية التي كان يبحر فيها هيجل مع أفكاره.

وبالتالي فالجدل هو المنهج الذي يتبعه الباحث في دراسته لكل الظواهر الطبيعية وقوانين العالم كما تستمد الديالكتيكية كفلسفة عملية إلى ثلاثة قوانين أساسية هي:

- **قانون تحول الكم إلى كيف:** حاولت الفلسفة وعلم الطبيعة، منذ القديم اكتشاف أسباب التنوع في عناصر الطبيعة وكيفية ارتباط ظواهرها ببعضها البعض خاصة أسباب ارتباط بعض أنواع النباتات والحيوانات ببعضها البعض وكذا ارتباط الإنسان بأنواع من الحيوانات...الخ، لكن اكتشاف هذه القوانين لم يحصل دفعة واحدة لأن العلم لم يكن متطورا بالقدر الكافي ليصل إلى هذه الدرجة وكذلك نشاط الإنسان لم يكن سريعا.

---

[2] جوزيف ستالين، تر: قدري محمود حنفي : المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، دار دمشق، سوريا، 2008، ص21.

[3] كارل ماركس: تر: محمد عيتاني: رأس المال، مكتبة المعارف، بيروت(لبنان)، 1982، ص22.

إن حدوث التراكم مع بقاء الحالة على ما هي عليه تغيير كمي، مثلا: في حالة الغيمة المشكلة من البخار تظل التغييرات الكمية تتراكم أي تستمر الأبخرة بالتصاعد والتجمع في الغيم ولا يحدث التغيير النوعي إلا عندما تتراكم هذه المتغيرات الكمية إلى الدرجة اللازمة لحدوث تغير نوعي،أي هطول المطر، كما أن النظرية الماركسية الديالكتيكية حول تحول الكم إلى كيف تعتبر تعميم المعطيات العلوم الطبيعية، وتعميما لتجربة التاريخ الإنساني العالمي وهو يكشف عن أحد أهم قوانين التطور.

ويمكن تعميم هذه الفكرة أيضا في تطوير مختلف جوانب الحياة الاجتماعية وبالتالي يمكن اعتبار هذا القانون أساس الجدل الماركسي في التحول من نظام اقتصادي إلى آخر.

- **قانون وحدة وصراع الأفراد:** بهذا القانون يعرف مصدر الحركة والقوة المحركة لتطور العالم المادي وملخص هذا القانون هو "وجود التناقض في الطبيعة والفكر والتنظيمات الاجتماعية كالتناقض موجود في كل الأشياء والظواهر وهو سبب التطور فالجديد يصارع القديم ويصرعه ويحدث بذلك التطور ولكن رغم أن الأشياء متناقضة وبالتالي تدخل في صراع فيما بينها فإنها متكاملة وتشملها وحدة عضوية لأنها توجد في النظام أو العالم، ولأنه لا وجود لأحدهما بدون الآخر فنفي أحداهما يستتبع نفي الآخر".[1]

ومن هذا المنطلق يمكن القول أنه لا يوجد في الوجود ظاهرة إلا وتحمل في داخلها بذرة فنائها،فأضداد الظاهرة تتواجد معها في داخلها وعندما نقول أن الشيء يحمل في داخلة بذرة فنائه، فمعنى ذلك أن هذه حقيقة ملموسة يعيها الإنسان وهذا ما نراه في واقعنا المادي، فمهما استغرقت مدة فنائه أو تبدله أو تغيره فلا يمكن أن يبقى على حالة واحدة.

- **قانون نفي النفي:** يفيدنا قانون نفي النفي أولا بأن حركة التطور ليست حركة خطية بل حركة لولبية وإن كانت هذه الحركة اللولبية لها محور رأسي يتجه إلى الأمام وأعلى د وما في سلم التطور حيث لا تعود الظاهرة في حركتها إلى النقطة التي انطلقت منها ولكن في مستوى أعلى، فالبذرة عندما تتحول في التراب إلى نبتة فإن هذه الأخيرة نفي للبذرة، كما أن تحول نبتة في الشجرة فإن الشجرة نفي للنبتة فنفي النفي ليس إلغاء تام للمرحلة السابقة بل هو تطوير لها.[1]

ومعنى ذلك أن القديم ينفيه الجديد، وأن هذا الجديد يجد بدوره في التطور شيئا ينفيه بحيث يعد هذا الأخير نفي للشيء وهكذا، وكما يحدث هذا التطور في الطبيعة فإنه يحدث في الحياة الاجتماعية فالإقطاع ينفي نظام الرق الذي يسبقه والرأسمالية تنفي الإقطاع والاشتراكية تنفي الرأسمالية، وبذلك فإن الاشتراكية نفي للنفي، لأن الرأسمالية هي نفي الإقطاع.

كما قدم ماركس مفهومه الخاص عن القيمة، والذي طوره انطلاقا من مفهوم القيمة عند الاقتصاديين الكلاسيكيين (سميث وريكاردو)، وأبدع مفهومي فائض القيمة وتراكم الرأسمال اللذين جعلاه يتنبأ بعدم قابلية النمط الاقتصادي الرأسمالي في الاستمرار، وحتمية تحول المجتمع الإنساني إلى النمط الاشتراكي في الإنتاج.

اعتبر ماركس أن فائض القيمة (الذي يُعَرِّفه بأنه قيمة العمل الفائض الذي يستمر العامل في أدائه بعد أن يكون قد أنتج قيمة أجره الذي يتقاضاه) هو استغلال لطبقة العمال من طرف طبقة الرأسماليين.

وأوضح عواقب استثمار أصحاب الرأسمال للجزء الأكبر من فائض القيمة في مراكمة المزيد من أدوات وعناصر الإنتاج على النمط الرأسمالي، حيث تؤدي هذه الدينامية إلى تراكم الرأسمال، ومن ثم إلى مضاعفة القدرات الإنتاجية باستمرار، مما يُفضي إلى حالة من فرط الإنتاج وميل معدل الربح إلى الانخفاض، وتنشأ بذلك أزمات دورية نتيجة لما يعتبره تناقضا داخليا للرأسمالية يُؤْذِن بانهيارها وفقا لرأيه.

وكغيره من علماء الاجتماع كتب ماركس العديد من المؤلفات، ويعد "رأس المال" أهمها وفيه يعمد إلى نقد نظريات الاقتصاد السياسي السائدة قبله، وإلى دراسة النمط الرأسمالي في الإنتاج بشكل عميق بهدف اكتشاف القوانين الاقتصادية التي تحكم حركة المجتمع المعاصر.

---

[1] محمد رشاد عبد العزيز محمود: الفكر الماركسي في ميزان الإسلام، مكتبة الفجر الجديد، القاهرة (مصر)، 1982، ص55.

[1] فريديريك أنجلز: تر: توفيق سلوم: ديالكتيك الطبيعية، دار الفارابي للنشر والتوزيع، لبنان، 2011، ص 29.

ومن مؤلفاته كذلك "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، "نظريات فائض القيمة"، "بيان الحزب الشيوعي" "بؤس الفلسفة" "الأيديولوجيا الألمانية" "أطروحات حول فيورباخ" و"المسألة اليهودية."

مما سبق ذكره، أن السوسيولوجيا الماركسية مرتبطة بكارل ماركس من جهة، وأنجلي من جهة أخرى، وتتمن السوسيولوجيا الماركسية بأهمية العمل وأسبقيته على الفكر النظري، وبالتالي فالممارسة العملية أو الماركسية أساس تطور المجتمعات، كما أن الأساس المادي والاقتصادي والمجتمعي أهم من البنى الفوقية، ومن ثم تنبني السوسيولوجيا الماركسية على المنهج الجدلي القائم على القوانين الثلاثة ووحدة صراع المتناقضات، وقانون الكم والكيف، وقانون نفي النفي.

وما يلاحظ على هذه السوسيولوجيا أنها رؤية ثورية تقويضية وراديكالية أساسها التغيير الجدلي انطلاقا من المادية التاريخية، لكن يغلب عليها الطابع الميتافيزيقي، والرؤية الشعرية الحالمة، والطوباوية الخيالية، وانفصال النظرية عن الواقع، وفشل التنبؤات الماركسية في تحقيق غاياتها ومرامها وأهدافها البعيدة. والدليل على ذلك أن تحولت الدول الاشتراكية إلى دول رأسمالية أو دول اقتصاد السوق بدلا من تحولها إلى دول شيوعية.

4- ماكس فيبر:

كارل إميل ماكسيميليان، المعروف باسم ماكس فيبر Max Weber ولد بمدينة أورفورت Erfurt الألمانية سنة 1864، وتوفي بمدينة ميونيخ Munich 1920 من عائلة بورجوازية، من أهم الفلاسفة الألمان، ومن أهم علماء القانون والاجتماع والإدارة والاقتصاد السياسي، ويعد أيضا من أهم رواد السوسيولوجيا المعاصرة.[1]

ويعد ماكس فيبر أيضا من أهم السوسيولوجيين الألمان الذين أرسوا دعائم السوسيولوجيا التأويلية بتجاوز التفسير العلمي نحو التأويل الذاتي والإنساني، وبتعبير آخر، لقد أخرج فيبر علم الاجتماع من إطار التفسير نحو الفهم والتأويل، بالتركيز على الفعل المجتمعي بدل البنية المجتمعية، والتمييز بين العلوم الوضعية.

حاول ماكس فيبر من خلال آلياته المنهجية أن يجعل من السوسيولوجيا علماً فهمياً وتجريبياً يهتم بالفعل والفاعل الاجتماعي؛ فالفعل الاجتماعي هو الموضوع الأساسي لعلم الاجتماع عند ماكس فيبر ولقد عرفه بأنه "صورة للسلوك الإنساني الذي يشتمل على الاتجاه الداخلي أو الخارجي الذي يكون معبراً عنه بواسطة الفعل أو الإحجام عن الفعل، إنه يكون الفعل عندما يخصص الفرد معنى ذاتياً معيناً لسلوكه، والفعل يصبح اجتماعياً عندما يرتبط المعنى الذاتي المعطي لهذا الفعل بواسطة الفرد بسلوك الأفراد الآخرين ويكون موجهاً نحو سلوكهم".[1]

عاش ماكس فيبر معارضا للفيلسوفين الألمانيين المتميزين - **ماركس ونيتشه**- إذ اكتفى بفهم العالم وتأويله على حد سواء، متجاوزا بذلك عمليتي التفسير و التغيير، بمعنى أن فيبر كان يدافع عن فلسفة التأويل، في حين، كان ماركس يدافع عن فلسفة التغيير، وإذا كان ماركس قد تجاوز الحقيقة إلى البحث عن العدالة، فإن فيبر مازال متعلقا بتلك الحقيقة، محاولا فهمها وتأويلها ورصدها عبر المعايشة، وقد انحاز فيبر إلى منهج العقلانية ورفض المناهج القائمة على فكرة التطور أو الجدل أو التفسير المادي، واستبدل البنية التحتية بالبنية الفوقية وجعل الثقافة هي الأساس في تحريك التاريخ والمجتمع والسياسة والاقتصاد، كما قال بتعددية الأسباب، ولم يقل بسبب واحد كما فعل ماركس حينما ركز على السبب المادي، فإذا كان في السياسة، أبدع فيبر فقد جعل منها حقلا للبحث العلمي، بحث فيه قضايا السيطرة والهيمنة والطاعة والشرعية والمشروعية والكريزما والسلطة والبيروقراطية والدولة والنفوذ والحق والقانون، وحاول أن يميز فيه بين السياسي الذي يعيش من السياسة وذاك الذي يعيش لها، لقد تجسد اهتمامه العملي بهذا الحقل من النشاط البشري في انتسابات متتالية إلى الأحزاب التي كانت قائمة في أيامه، أما الانسحابات المتتالية منها فقد أظهرته أكثر ميلا إلى الممارسة النظرية

(1) Gilles Ferréol, jean pierre noreck : introduction a la sociologie, Armand colin, paris, 7édit, 2007, p 43.

(1) Thomas gay: l'indispensable de la sociologie, studyrama, France, 2004, pp 24-25.

منه إلى الممارسة السياسية المباشرة وأكثر نجاحا في الأولى منه في الثانية، فهو لم يكن مجرد عام اجتماع يهتم بالسياسة، بل هو - حسبما يقول النقاد- مؤسس علم اجتماع.[2]

جعل ماكس فيبر موضوع السوسيولوجيا فهم الفعل الاجتماعي وتأويله بالاعتماد على منهج الفهم، وهدف السوسيولوجيا عنده تفسير هذا الفعل المرصود سببيا بربطه بالآثار والنتائج، ويقصد بالفعل سلوك الفرد أو الإنسان داخل المجتمع، مهما كان ذلك السلوك ظاهرا أو مضمرا، صادرا عن إرادة حرة أو كان نتاجا لأمر خارجي، ومن ثم، يتخذ هذا الفعل - أثناء التواصل والتفاعل - معنى ذاتيا لدى الأخر أو الآخرين، مادام هذا الفعل الاجتماعي مرتبطا بالذات والمقصدية، أي: الإجابة عن سؤال جوهري ألا وهو: كيف يرى الناس سلوكهم ويفسرونه؟ بمعنى أن "الفعل الإنساني عند فيبر هو السلوك الذي يحمل دلالة ومعنى وهدفا، وأما الفعل المجتمعي، فهو السلوك الذي يسلك تجاه الآخرين، من خلال مايراه في سلوك الآخرين من دلالة ومعنى وهدف".[3]

يركز ماكس فيبر على دراسة الفعل أو السلوك الاجتماعي الذي يتحقق بالتفاعل بين الأفراد، ويتخذ هذا الفعل معنى ذاتيا وغرضيا، ومن هنا، فقد انتقل ماكس فيبر بعلم الاجتماع من عام الأشياء الموضوعية إلى الأفعال الإنسانية أي: انتقل من الموضوع إلى الذات، أو من الشيء إلى الإنسان، كما تجاوز المقاربة الوضعية نحو المقاربة الهيرمونيطيقية التي تقوم على الفهم والتأويل الذاتي الإنساني، وبهذا، قد أحدث قطيعة إبستمولوجية، ضمن مسار علم الاجتماع، بتأسيس المدرسة التأويلية أو الهيرمونيطيقية أو سوسيولوجيا الفهم la sociologie compréhensive

يستخدم ماكس فيبر في فهم الفعل الاجتماعي وحتمياته، ويحمل هذا الفعل معنى ما، مادام موجها نحو الغير ومن ثم، فهذه الأفعال أنواع وأنماط، فهنات أفعال غير واعية أو أقل وعيا، وأفعال اجتماعية، وأفعال أكثر وعيا وأفعال أكثر اجتماعية على الشكل التالي:

- **الفعل التقليدي** :ينبني هذا الفعل على العادات والقيم والأعراف والتقاليد؛ فالأنشطة اليومية، مثل: الأكل بشوكة أو المصافحة بالأيدي تتأتى من الفعل التقليدي.
- **الفعل الوجداني أو العاطفي:** هو ذلك الفعل الذي توجهه العواطف، ومن ثم، فهو فعل غير عقلاني مثل: عقاب الأم لابنها بطريقة عاطفية وانفعالية.
- **الفعل الأخلاقي العقلاني** :هو فعل يتجه صوب القيم، له درجة عالية من الوعي، ويرتبط بهدف ما ضمن نظام القيم، مثل: ربان السفينة الذي يغرق مع سفينته، حين استحالة إنقاذها (فعل التضحية).
- **الفعل العقلاني الهادف:** يرتبط هذا الفعل بالتخطيط والترشيد العقلاني والتدبير الجيد، أي: يخطط قبل التنفيذ، ويقارن بين الوسائل المتاحة قبل العمل للوصول إلى أهدافه المرجوة، ويحلل النتاج المتوقعة الناتجة عن هذا الفعل المرتقب، مثل: الإستراتيجية العسكرية أو الاقتصادية أو الإدارية.

وهذه الأنماط الأربعة من السلوك ترتبط ارتباطا وظيفيا بأنماط العلاقات الاجتماعية: فالسلوك العقلي بنوعيه هو الفعل الاجتماعي الذي يسود المجتمع عامة، أما السلوك العاطفي، فهو خاص بالجماعة، في حين أن السلوك اللاعقلي يخص الإنسانية جمعاء، وقوامه جملة من العادات والتقاليد التي قد تتحول إلى سلطة اجتماعية قاهرة.

وفي محاولة تفسير النسق الديني قدم ماكس فيبر مجموعة من الدراسات يمكن أن تدخل تحت علم الاجتماع الديني لعل من أهمها تلك الدراسة التي حاول فيها أن يناهض الفكر الماركسي في أساسه وجوهره والتي تقع تحت عنوان الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ثم قام فيبر بعد ذلك بدراسات مقارنة تناولت الأديان الكبرى والعلاقة بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية من جهة والاتجاهات الدينية من جهة أخرى، وعن الدور الذي يلعبه الدين من خلال دراسات فيبر فإن **ريمون آرون** يقول: "إن نقطة الانطلاق في دراسات فيبر عن علم الاجتماع الديني هما في اعتقاده بأن فهم أي اتجاه يحتاج من الباحث إلى إدراك

(2) لورن فلوري: تر: محمد علي مقلد: ماكس فيبر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت (لبنان)، ط1، 2007، ص ص 12-13.

(3) Catherine Colliot-Thélène: **la sociologie de Max Weber**, La découverte, Paris, France, 2006, p 50.

تصور الفاعل للوجود بأكمله" إذ في ضوء هذا الاعتقاد حدد فيبر التساؤل الآتي لكي يجيب عليه دراساته. إلى أي مدى تؤثر التصورات الدينية عن العالم والوجود في السلوك الاقتصادي لكافة المجتمعات ، فحسب **ريمون آرون** فماكس فيبر في دراسته لتأثير الأخلاق البروتستانتينية على الرأسمالية كان يريد أن يؤكد قضيتين هما :

- أن سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يفهم في إطار تصورهم العام للوجود وتعتبر المعتقدات الدينية وتفسيرها إحدى هذا التصورات للعالم والتي تؤثر في سلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك السلوك الاقتصادي.

- إن التصورات الدينية هي بالفعل إحدى محددات السلوك الاقتصادي ومن ثم فهي تعد من أسباب تغير هذا السلوك.[1]

كما يعتبر فيبر أن التصورات الدينية هي بالفعل إحدى محددات السلوك الاقتصادي ومن ثم فهي تعد من أسباب تغير هذا السلوك، على أن فيبر لم يعالج الجوانب المختلفة للدين بوصفه ظاهرة اجتماعية بل اكتفى بدراسة الأخلاقيات الاقتصادية للدين ويقصد منها ما يؤكد عليه الدين من قيم اقتصادية، ويرى فيبر أن الرأسمالية الحديثة تمثل في حقيقة الأمر ظاهرة فريدة تنحصر خصائصها الأساسية فيما يلي: المشروع الاقتصادي القائم على التنظيم العقلي والذي تتم إدارته وفقاً لمبادئ علمية والثروات الخاصة والإنتاج من أجل السوق، والإنتاج للجماهير وعن طريقهم والإنتاج من أجل المال والحماس المتزايد والروح المعنوية العالية والكفاءة في العمل تلك التي تتطلب تفرغاً كاملاً من الفرد ليزاول مهنته أو عمله وهذا التفرغ يجعل من العمل المهني هدفاً ومطلباً رئيسياً في حياة الفرد وهذه الأخلاق المهنية تعتبر من السمات الواضحة لروح الرأسمالية الحديثة. بيد أن الرأسمالية تتطلب كذلك وجود أفراد يتميزون بخصائص سيكولوجية معينة وظروف اجتماعية معينة فالتنظيم الرأسمالي لا يتحقق في مجتمع يتسم أفراده بالكسل ويتمسكون بمعتقدات خرافية ويتميزن بعدم الكفاءة كذلك فلابد من توافر مجموعة من الظروف إلى جانب الخصائص السيكولوجية التي ذكرها وهذه الظروف هي رأس مال عقلي وإدارة للعمل وامتلاك كل وسائل الإنتاج وتوفر وسيلة للإنتاج وشيوع قانون عقلي وازدياد العمل الحر وتسويق لمنتجات العمل، ويذهب فيبر إلى أن بنيامين فرانكلين قد عبر بصدق عن السمات السيكولوجية اللازمة لوجود النظام الرأسمالي مثل أن الأمانة هي أفضل سياسة، والحساب الدقيق ضرورة لأي عمل، السلوك المنظم، المثابرة، الكفاية، الصدق والإخلاص.

وبالنسبة لخضوع الأفراد للسلطة فيكون انطلاقاً من دوافع ذاتية قد تكون عاطفية وجدانية تجاه مالك السلطة، وقد تكون عقلانية تعتمد على إيمان الأفراد بقيم معينة، وقد تكون عقلانية غائية، حيث تكون مصلحة الفرد هي التي دفعت به إلى الخضوع أو قبول السلطة، وقد تكون دوافع تقليدية تجعل الأفراد يؤمنون بالسلطة لإيمانهم بالتقاليد التي تعوّدوا عليها منذ القدم، هذا التفاعل بين الأفراد ودوافعهم الذاتية هو الذي ينتج لنا أفعالاً اجتماعية وعلاقات تستحق الدراسة السوسيولوجية.[1]

ولقد ميز فيبر بين ثلاثة نماذج مثالية للسلطة تعتمد على تصورات مختلفة للشرعية هي : السلطة الملهمة السلطة التقليدية، السلطة القانونية، كما اهتم فيبر باستخدام مصطلح " التحول نحو البيروقراطية " استخداماً واسعاً حيث أن هذا التحول مرتبط بظهور أنماط للسلوك والتفكير تشيع في كافة مجالات الحياة الاجتماعية نتيجة انتشار النزعة العقلية، تلك التي تشير إلى الإحاطة النظرية بأبعاد الواقع من خلال مفاهيم محددة ومجردة والتوجيه المنظم نحو تحقيق هدف أو غاية معينة بعد دراسة كافة الوسائل الممكنة والمفاضلة بينها، ومن نتائج هذا التصور للعقلانية ازدهار العلم وازدياد الاعتماد عليه كنسق فكري يوجه السلوك والعمل بدلاً من الاعتماد على التفسيرات والقيم والأفكار الغيبية والميتافيزيقية، فالفكرة المحورية وراء تحليله التاريخي تتمثل في الصراع بين الإلهام الذي يشير إلى ابتكار أو تجديد نتيجة قوى تلقائية تظهر في المجتمع وتتحكم في مساره وبين الروتين أو النظام الدقيق القائم على أسس معروفة وخطة محددة من قبل فليس من شك أن القيادة الملهمة قوة ثورية في العملية التاريخية.

---

[1] ماكس فيبر: تر: صلاح هلال: مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، المركز الثقافي الألماني، القاهرة (مصر)، ط1، 2011، ص ص 93-94.

(1) Max Weber: Economie et société, poquet, paris,1995, p 64.

إن الفرد عند فيبر هو إذاً كائن نشيط له أسبقية في الدراسة على المجتمع المكوّن بدوره من عدد من الأفراد، أما المعايير والقيم فهي آليات متاحة للفرد الذي يحتفظ دائماً بهامش كبير من الحرية من أجل أداء أدواره، وهو يعتمد في إنتاج ذلك على مصلحته الخاصة.

لقد ذهب ريمون آرون، في اتجاه فيبر نفسه واعتبر أن الفردانية المنهجية تنبني على عدد من المرتكزات:
- الواقع أو الحقيقة التي يتكوّن منها موضوع العلوم الإنسانية لا يتحقق إلا من خلال الأفراد ومن خلال سلوكياتهم وتصرفاتهم.
- المجموعات الاجتماعية (Les Ensembles sociaux) ليست حقيقة في حد ذاتها ولكنها بنيات اجتماعية.

اعتبر فيبر وكما هو الشأن عند آرون أن الفردانية المنهجية جاءت للتمييز بين الفرد والجماعة، وذلك من أجل تكوين منهجية يمكن من خلالها فهم النشاط الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية كلّها انطلاقاً من الفرد، فإذا أخذنا مثلاً ظاهرة زيادة الأسعار التي تؤدي إلى ضعف الطلب هذه الوضعية تفسير بحسب الفردانية المنهجية من خلال الفرد المستهلك الذي أراد أن يحافظ على قدراته الشرائية، لذلك فهو يفضل شراء سلعة مشابهة بثمن أقل أو الاستغناء كلياً عن هذه السلعة، وتكون تصرفاته اتجاه هذه الوضعية خاضعة لمعايير وقيم محددتين يؤمن بهما.

من خلال هذا يبدو أن الفردانية المنهجية عند ماكس فيبر لا تهتم إلا بتصرفات الفاعلين الفرديين من دون الاهتمام بالمفاهيم الجماعية، وهي ترتكز أساساً على التصرفات العقلانية، وهذا ما تؤكده الرسالة التي بعث فيها فيبر الى لايفمان (Liefmann)قبل وفاته بقليل يقول له فيها أنه إذا أصبح سوسيولوجياً فبالأساس ليضع حداً للدراسات التي ترتكز على المفاهيم الجماعية، ولأن السوسيولوجيا لا يمكنها أن تتبع إلا حركة فرد أو عدد محدد من الأفراد، وهو ما يجعلها لا تتبع إلا مناهج فردانية.

كما تبنى فيبر منهجية خاصة بعلوم الثقافة وحاول من خلال النموذج المثالي دراسة المعنى والأسباب السوسيوتاريخية للحداثة الغربية من خلال الفردانية، ومع كل تلك الاختلافات، فإن دوركهايم كما هو الشأن عند ماركس فيبر، انكبت دراستهما على موضوع واحد، وهو قدر الإنسان الحديث الذي أصبح يعيش مصاعب كثيرة وتطورات جديدة أنتجها التطور الذي ساد جميع مناحي الحياة الاجتماعية في العصر الحديث.

تعتبر قضية البيروقراطية قضية تثقيفية، وكان لها تأثير كبير في علم الاجتماع الصناعي، ولكنها بالفعل تشكل جزءا من سوسيولوجيا الهيمنة عند فيبر، وتولي سوسيولوجيا الهيمنة اهتماما مماثلا للأشكال التقليدية للسلطة المبنية على العادات والتقاليد وحكم كبار السن.

وفي الأخير حقيقة يعتبر ماكس فيبر رائد علم الاجتماع الفهمي، ورائد السوسيولوجيا السياسية ومؤسس السوسيولوجيا الإدارية، وسوسيولوجيا الأديان والفنون، ومن ثم تتميز اهتمامات ماكس فيبر بتعدد الاختصاصات، فهو رجل فلسفة، وتاريخ، واقتصاد، وسياسة، وإدارة، ودين، وفن، لدا شملت أبحاثه مجالات التاريخ والثقافة والاقتصاد وعلم الاجتماع، وقد تأثر في تنوعه المبدع بالخبرات التي اكتسبها بين صفوف الأساتذة في المدينة الجامعية الشهيرة هايدلبيرغ.

كما يظهر تحليل فيبر للمجتمع عن طريق شقه عبر الأستار التي نسجتها السوسيولوجيا الأكاديمية للوصول إلى إعادة صياغة علم اجتماع لم يوافق على كل التحليلات التي كانت سائدة قبله.

5- إيميل دوركايم (1858-1917):

يعد ايميل دوركايم بالإضافة إلى كارل ماركس وماكس فيبر أحد أهم ثلاث شخصيات ذات تأثير فريد في تطوير وإنشاء السوسيولوجيا، إذ يعده الكثير من علماء الاجتماع واحد مؤسسي علم الاجتماع الأكاديمي، وعلى خلاف ماركس وفيبر، فقد حدد دوركايم مهنته على أنها مهمة تطوير علم الاجتماع كعلم مقبول ذي قدر داخل عالم الجامعة، وقد نجح في أداء هذا الدول المحترف.

يعد إيميل دوركايم من أوائل الفرنسيين في علم الاجتماع الذين ساروا في طريق العمل الأكاديمي أثر تطلعه هذا في نشاطه وأفكاره، فقدر له أن يواجه ظروفا مرتبطة بالعمل الجامعي عكس سابقيه ابن خلدون وأوجست كونت، وماركس، الذين كانوا رجال فكر، ورجال حياة عامة، ولد دروكايم في 15 أفريل 1858 بمدينة إبينال بمنطقة اللورين- المقاطعة الفرنسية الشرقية- كان

والده من الحاخامات اليهود، الذي أراد لابنه أن يسير على نهج الأسرة، بأن يصبح رجل دين، وقد أراد الابن لنفسه هذا أيضا، ومن ثم درس العبرية وقرأ كتاب العهد القديم والتلمود الذي يحوي تعاليم الأحبار، وفي الوقت نفسه وبعد محاولتين فاشلتين تم قبوله بمدرسة النخبة -نورمال سوبريور- في باريس سنة 1879 وفيها التقى بعدد من العلماء والمفكرين الذين تركوا آثارا واضحة على الحياة الفكرية في فرنسا، من أمثال هنري برجسون الفيلسوف الشهير، وبيير جانيت الباحث في علم النفس، وكان من أكثر أساتذة المدرسة تأثيرا فيه فوستل دي كولانج مؤلف كتاب (المدينة القديمة) والذي أصبح بعد ذلك مديرا للمدرسة.[1]

وبعد تخرجه من مدرسة النخبة بباريس سنة 1882 اشتغل دوركايم بالتدريس في المدارس الثانوية حتى سنة 1887 ثم أتيح له أن يذهب إلى ألمانيا في إجازة علمية، وهناك تعرف على فكر (فاجنر) و(شمولر) و(فونت) وتأثر بهم وانعكس هذا على موقفه الفلسفي، سواء من الفكر أو من الواقع، هذا بالطبع بجانب تأثره البالغ بفلاسفة عصر التنوير من أمثال (جان جاك روسو) ومونتسكيو، كما تأثر بالطبع بفكر (سان سيمون) الذي عده دركايم أستاذه في علم الاجتماع.

وأما عن أبرز الملامح البنائية للمجتمع الذي عاش فيه، فمع أن فرنسا كانت تنؤ في أوائل ومنتصف القرن التاسع عشر بالثورات، إلا أن المسرح السياسي في تسعينات هذا القرن عايش هدوءا نسبيا، وأما عن مجتمعه الذي قضى فيه سنوات الطفولة والتنشئة الاجتماعية الأولى، فقد كان مجتمعا يهوديا محافظا ومتضامنا تسوده علاقات مباشرة، ومع أنه انتقل إلى العاصمة (باريس) حيث المجتمع المتباين فلم ينس ارتباطاته الأولى حتى أن يخيل للمرء أن تصوره للمجتمع لم يخرج عن هذين النمطين مجتمع الطفولة البسيط، ومجتمع العاصمة المعقد، كما اتضح من تصوراته للتضامن الآلي والتضامن العضوي، على أن فهمنا لتصوره لدور علم الاجتماع يقتضي تفحص علاقته بالفكر الاشتراكي حيث بدأ يهتم ومبكرا بهذا الفكر، سواء ما قدمه (سان سيمون) أو (ماركس)، ففي الوقت الذي كان يطلع فيه على أنماط هذا الفكر، بدأ يخط التصور الأول لدراسته الشهيرة حول (تقسيم العمل) وكانت النتيجة أن صاغ أفكارا ونظريات متأثرة حينا بالمقولات الاجتماعية للاشتراكية ومناهضة لها أحيانا أخرى ولكن تصوراته كانت تؤكد التضامن الاجتماعي بدلا من الصراع الاجتماعي.[1]

ومن اهم النظريات التي عالجها دوركايم : لدى دوركايم إسهامات عديدة في النظريات الاجتماعية والسياسية, ومن خلال قراءتي سوف اقسم إسهاماته النظرية إلى الآتي :

يتناول دوركايم قضايا تتردد بشكل أو بآخر في كل كتبه خاصة مسألة **تقسيم العمـــل والتضامن الاجتماعي**؛ التي تعتبر أول دراسة هامة لدوركايم، أين حدد لنفسه مهمة أساسية تتلخص في التدليل على نمو تقسيم العمل بوصفة يمثل عملية تاريخية ضرورية ويؤدي بالتالي إلى تزايد التضامن الاجتماعي بين الناس فـــهذه (الوظائف) يؤديها الناس وقد انتظموا في ترتيب طبقي محدد تتباين فيه درجات الثروة والقوة والهيبة الاجتماعية وأيضا إن تطور الصناعة وتقسيم العمل الحاصل به لن يؤدي إلى صراع المصالح والتفكك, لذا على الدولة الاستمرار دعم النسق الأخلاقي العام في المجتمع لكي لايحدث خلاف ذلك، فإن كانت هناك بعض الإصلاحات الاجتماعية الضرورية التي تساهم في إقامة عدالة حقيقية وإيجاد تضامن اجتماعي، لذلك لا يتعين فصل الأخلاق عن العلم وإنما يجب أن نحاول إقامة علم أخلاقي مختلف تماما عن تلك الفلسفة الأخلاقية، والسبب الأساسي في ذلك أن القواعد الأخلاقية إنما ترتبط ارتباطا وثيقا بظروف الحياة الاجتماعية والتي تعتبر نسبية من حيث الزمان والمكان وهكذا يسعى علم الظواهر الأخلاقية إلى تحليل اثر الصور المتغيرة للمجتمع في تغير طابع المعايير الأخلاقية محاولا ملاحظة ووصف وتصنيف هذه المعايير.

يعتقد دوركايم أن تقسيم العمل ظاهرة ليست حديثة النشأة ولكن الجانب الاجتماعي لها أخذ يظهر بوضوح منذ وآخر القرن الثامن عشر، فدوركايم يؤيد وجهة نظر العالم أوجست كونت الذي يقول إن تقسيم العمل ليس مجرد ظاهرة اقتصادية وإنما شرط أساسي للحياة.

---

(1) عثمان عيسى: الفكر الاجتماعي والنظريات الكلاسيكية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 2009، ص109.

[1] دور كايم: تر:محمود قاسم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (مصر)، 1961، ص4.

انتقل دور كايم بعد ذلك إلى البحث عما إذا كانت هناك نماذج متعددة للتضامن الاجتماعي, وانتهى إلى وجود نموذجين أساسيين للتضامن هما التضامن الآلي والتضامن العضوي؛ فالتضامن الآلي ينتشر في المجتمعات البدائية أو التقليدية حيث يسود في المجتمع شعور قوي بينما يرتبط التضامن العضوي بالمجتمعات الحديثة التي يزداد فيها تقسيم العمل، فكان المجتمع الذي ينتشر فيه التضامن الآلي هو المجتمع الانقسامي، ويتميز هذا المجتمع بسمات اجتماعية خاصة، إذ يغلب على السلوك الإنساني فيه التجانس الاجتماعي، والذي تكون فيه الأفكار والمعتقدات والعادات والآراء، وطرائق السلوك الفردي ولجماعي، أما من حيث القانون والأخلاق والضبط الاجتماعي فهناك ولاء ملحوظ للضمير الجمعي الذي يعني مجموعة المعتقدات والعواطف العامة بين أعضاء المجتمع، والتي تكون نسقا خاصا ومثل هذا الضمير العام له وجوده الخاص المتميز فهو يدوم عبر الزمن ، ويعمل على توحيد الأجيال ، والضمير الجمعي يعيش بين الأفراد لكنه يتميز بالقوة والاستقلال وبخاصة حينما تزداد رجة التشابه بين الأفراد وهذا من وجهة نظر دوركايم.

ما الذي يؤدي إلى زيادة تقسيم العمل ؟ يجيب دوركايم إن تقسيم العمل يختلف باختلاف حجم المجتمع وكثافة السكان، وشدة التفاعل الاجتماعي، فازدياد عدد السكان هو العامل الأساسي لتقسيم العمل فقد ترتب على ذلك شدة الصراع من اجل البقاء والاستمرار فكثرة العدد تفرض على الناس ضرورة التخصص المهني، مما يقلل من حدة الصراع، ويتيح فرصة أوسع للحصول على وسائل الحياة .[1]

من الممكن أن يبدو تعريف علم الاجتماع كدراسة للحقائق الاجتماعية، كما يظهر في البحث الميتودولوجي الذي يضمه كتاب **قواعد المنهج في علم الاجتماع**، حيث نظر دوركايم إلى علم الاجتماع من حيث كونه يهتم بدراسة المجتمع وما ينبعث عنه من ظواهر دراسة علمية وصفية تحليلية ولكي يحقق العلم هذه الغاية فانه لابد من منهج علمي يستطيع بفضله إلى الوصول إلى قوانين الظواهر ولقد وضع دوركايم الخصائص التي يجب إن تتميز بها دراسات علم الاجتماع والتي يمكن إيجازها في الآتي :

- يجب دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء بمعنى أن تخضع للملاحظة والتجربة.
- يجب على الباحث أن يتحرر من كل فكرة سابقة يعرفها عن الظاهرة حتى لا يقع أسير الأفكار الشخصية.
- يجب على الباحث إن يبتدئ بتعريف الظاهرة التي يتخذها مادة للدراسة.
- يجب على الباحث عند دراسة طائفة خاصة من الظواهر الاجتماعية إن يبذل قصارى جهده في ملاحظة هذه الظواهر من الناحية التي تبدو فيها مستقلة عن مظاهرها الفردية .[2]

كما يلح دوركايم على ضرورة ملاحظة ما للظواهر الاجتماعية من صفات نوعية خاصة بها تختلف عن الظواهر الفردية حيوية كانت أم نفسية، ولتوضيح هذه الطبيعة الخاصة للظاهرة الاجتماعية يشرح ايميل دوركايم تلك الصفات الخاصة التي تميزها عن غيرها من الظواهر وهذه الصفات هي: الموضوعية العمومية، الإلزام والقهر التلقائية الترابط.[3]

وينطلق إميل دوركايم في كتابه **الانتحار** من نتيجة أساسية، وهي أن الانتحار ليست ظاهرة نفسية أو عضوية بل هي ظاهرة مجتمعية، مرتبطة بتقسيم العمل في المجتمع الرأسمالي الصناعي، وبالتالي يتحدد معدل الانتحار بحسب درجة اندماج الأفراد في الجماعة، والعلاقة بينهما علاقة علية أو سببية.[4]

كما رسم دوركايم الملامح الرئيسية لأربعة أنواع من الانتحار اعتمادا على الوجوب والغياب النسبيين للتنظيم الاجتماعي وهي: انتحار الوحدة أو العزلة الاجتماعية، الانتحار الإيثاري، انتحار التفسخ الاجتماعي، الانتحار القدري.[5]

كما حاول دوركايم في كتابه عن (الصور الأولية للحياة الدينية) الذي ظهر سنة 1912 أن يقدم لنا تحليلا دقيقا لصور ومصادر وطبيعة وأثار الدين من نفس ديانته السوسيولوجية، وحاول أيضا دو أن يبحث عن أصل الدين وذلك بتحليل الدين في

---

[1] إيميل دوركايم: تر: حافظ الجمالي، تقسيم العمل الاجتماعي، المكتبة الشرقية للتوزيع، بيروت (لبنان)، 1982، ص ص 265-270.

[2] ايميل دوركايم: تر:محمود قاسم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (مصر)، 1984، ص70.

[3] نبيل عبد الحميد عبد الجبار: تاريخ الفكر الاجتماعي، منشورات دار دجلة، (عمان)، الأردن، 2009، ص ص176-177.

[4] Philippe Steiner: La sociologie de Durkheim, Éditions La Découverte, Paris, 4em edit, 2005, p65.

[5] Émile Durkheim : Le Suicide, Étude de sociologie, Presses universitaires de France, Paris, 1981, p 463

أكثر المجتمعات البدائية، يعتقد دوركايم أن التغيرات في الشكل تؤدي إلى تغيرات جوهرية في الطبيعة، ويرى إن الوقوف على تطور المجتمع من البسيط إلى المركب سوف يحدد لنا مجرى التطور الاجتماعي.

يؤكد دو كايم على إن علم الاجتماع له منهجا مخالفا لدراسة الظاهرة الدينية، الدين بالنسبة لدوركايم يجب إن يدرس كحقيقة اجتماعية، فدوركايم يرفض تفسير الدين على انه نتاج تقسيمات عقلية زائفة أو توهم ناجما عن ضغط مشاعر معينة.

حاول دوركايم معرفة أصل الديانات من خلال إحدى القبائل الاسترالية التي تسمى الارونتا والتي كانت في نظرة تمثل مرحلة أولى في النمو التطورية فوجد إن أصل الديانات ديانة تعرف باسم التوتمية وهي أكثر صور الدين بساطة وتشير الطوطميةإلى اعتقاد داخلي في قوة غيبية أو مقدسة أو في مبدأ يحدد مجموعة من الجزاءات يتعين تطبيقها على كل من يحاول انتهاك المحرمات ويعمل في الوقت ذاته على دعم المسئوليات الأخلاقية في الجماعة .[1]

أما فيما يتعلق بتطور المجتمع فنجده في كتابه (قواعد المنهج) – الذي يعد تلخيصا للكثير من تصوراته لعلم الاجتماع، وللمجتمع – فيذكر أن العامل الفعال الوحيد الذي يؤثر في المجتمع هو البيئة الاجتماعية بمعنى الكلمة ونعني بها البيئة الإنسانية، وحينئذ فيجب على عالم الاجتماع أن يبذل مجهوده الرئيسي في الكشف عن مختلف خواص هذه البيئة الإنسانية التي تستطيع التأثير في تطور الظاهرات الاجتماعية، ولقد اهتدينا حتى الآن إلى نوعين من الخواص التي يتحقق فيها الشرط السابق بصفة شديدة الوضوح، أما النوع الأول فهو (عدد الوحدات الاجتماعية) أو ما يطلق عليه اسم حجم المجتمع، وأما النوع الثاني فهو درجة تركز (الكتلة الاجتماعية) أو ما يطلق عليه اسم (الكثافة الديناميكية)، ويجب ألا يفهم هذا المصطلح الأخير على أنه يعبر فحسب عن درجة التركز المادي التي لا تؤثر تأثيرا واضحا مادامت هناك بعض الفجوات الروحية التي تفصل بين الأفراد، أو تفصل بالأحرى بين مجموعات الأفراد، بل يجب أن يفهم هذا المصطلح أيضا على أنه يعبر عن الصلات الروحية الوثيقة التي لا يعد التركيز المادي إلا تابعا لها، أو بصفة عامة إحدى نتائجها، وبهذا يمكن تحديد الكثافة بعدد الأفراد الذين يعيشون حياة مشتركة إلى جانب ما يتبادلونه من خدمات وما يوجد بينهم من تنافس وليس من الممكن أن تتأثر الحياة الاجتماعية إلا بعدد الأفراد الذين يشتركون اشتراكا فعليا في هذه الحياة، ولهذا السبب كانت درجة الالتئام بين الأجزاء الاجتماعية التي يتكون منها أي شعب من الشعوب هي خير وسيلة تعبر عن كثافته الديناميكية، والحالة التي توجد عليها هذه البيئة – في كل لحظة تخضع هي نفسها لبعض الأسباب الاجتماعية، وهذه الأسباب على نوعين: فمنها ما هو جزء لا يتجزأ من بقية المجتمع، ومنها ما يرجع إلى التأثير المتبادل بين هذا المجتمع وبين المجتمعات التي تجاوره.[2]

إن المدقق في هذه الفقرة يستطيع أن يتبين أولا أن كثافة المجتمع، وتقسيم العمل والاتصال بمجتمعات أخرى عوامل بارزة في التطور والتغير الاجتماعي، ويستطيع أن يتبين ثانيا أنه يعتبر الواقع المادي الموضوعي – ليس فقط الواقع الاقتصادي – تابعا للأفكار والتصورات، أو بصفة عامة لمظاهر الوعي الجمعي المتمثل في وجود قيم مشتركة بين الأفراد.

أما وصف نظرية المعرفة عند دوركايم الوصف الامثل بوصفها نزعة عقلانية سوسيولوجية، وتنشأ نظرية في المعرفة على نحو منظم بالتوازي مع نظريته في الوجود، كما ان نظريته في المعرفة مركبة على نحو منظم في تعارض مع نظريات المعرفة البديلة، بداية من نظرية الاختزال البيولوجي، والفردية والمادية، والعقلانية القبلية، والامبريقية ويتكئ موقف دوركايم في النقاش المعرفي-الوجودي على تصوره الخاص لذات المعرفة البشرية وتطورها.[3]

لقد استطاع دوركايم أن يقلب الأدوار فعلا فقد أصبح علم الاجتماع معه يقوم بدور التوجيه العلماني لكل المؤسسات التي كانت خاضعة للتوجيه الديني، يعني هذا أن إميل دوركايم كان ينطلق من فلسفة وضعية علمانية تجريبية، تفصل الدين عن الدولة، كما تفصله عن العلم، أي: لم يكن دوركايم يولي الدين أو الأخلاق أو القيم أية أهمية في دراسة المجتمع وظواهره المختلفة.

---

(1) Durkheim, Émile. Les formes élémentaires de la vie religieuse, Presses Universitaires de France, 5e édition, 2003, P 604.

(2) ايميل دوركايم: تر: حسن أنيس، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة (مصر)، ط1، 1966، ص ص 113-114.

(3) جينيفر ليمان: تر: محمود عبد الله: تفكيك دوركايم، نقد مابعد بعد بنيوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة (مصر)، ط1، 2013، ص207.

وفي الأخير يمكننا القول أن إميل دوركايم هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع في منظوره التجريبي والوضعي، مادام هذا العلم مبنيا على مجموعة من الخطوات العلمية المقننة الصارمة ويكفيه فخرا أن حدد لهذا العلم مجموعة من القواعد والشروط المنهجية، ليتبوأ هذا العلم المستقل مكانته اللائقة به بين باقي العلوم والمعارف الأخرى

لقد حاولنا في هدا المحور التطرق لمجموعة من رواد علم الاجتماع العربي والغربي الذين ساهموا في تأسيس علم الاجتماع أو ما يسمى أيضا بالسوسيولوجيا، بمختلف فروعها، واللذين حاولوا صياغة و إنماء نظريات عامة تلائم البنى الاجتماعية لمجتمعاتهم، والتي يمكن أخدها كقوالب منهجية ونظرية لفهم وتفسير الواقع، وهذا ماسنتناوله في المحور الموالي والذي يعنى بالمداخل الكبرى في علم الاجتماع.

مراجع المحاضرة:

1- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط1، 2004.

2- أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي، دراسات تكاملية للنظريات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت(لبنان)، 1981.

3- آزاد أحمد علي وآخرون: الفكر الاجتماعي الخلدوني، المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (لبنان)، 2004.

4- أنطوني جدنز: تر: أديب يوسف شيش، الرأسماليّة والنظرية الاجتماعية الحديثة، تحليل كتابات ماركس ودوركهايم وماكس فيبر، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق (سوريا)، 2014.

5- أوجست كورنو: تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، أصول الفكر الماركسي، دار الآداب، بيروت (لبنان)، ط1، 1968.

6- إيميل دوركايم: تر: حافظ الجمالي، تقسيم العمل الاجتماعي، المكتبة الشرقية للتوزيع، بيروت (لبنان)، 1982.

7- ايميل دوركايم: تر: حسن أنيس، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة (مصر)، ط1، 1966.

8- ايميل دوركايم: تر:محمود قاسم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (مصر)، 1984.

9- بيار مشيري: تر: سامي أدهم: كونت، الفلسفة والعلوم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، ط1، 1994.

10- توم بوتومور: تر: محمد علي محمد وعبد الرزاق جلبي: نقد علم الاجتماع الماركسي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة (مصر)، 1984.

11- جاك أتالي: تر: محمد صبح: كارل ماركس أو فكر العالم، سيرة حياة، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط1، 2008.

12- جوزيف ستالين، تر: قدري محمود حنفي : المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، دار دمشق، سوريا، 2008.

13- جينيفر ليمان: تر: محمود عبد الله: تفكيك دوركايم، نقد مابعد بعد بنيوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة (مصر)، ط1، 2013.

14- حسن الساعاتي : **علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج**، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، 1984.

15- دور كايم: تر:محمود قاسم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (مصر)، 1961.

16- روجيه غارودي: الماركسية: تر: محمد الأمين بحري، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009.

17- زيدان عبد الباقي: **التفكير الاجتماعي: نشأته وتطوره**، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، 1981.

18- شفيق الجيوري :علم الاجتماع المعرفة عند ابن خلدون، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2012.

19- عبد الله محمد عبد الرحمان : النظرية في علم الاجتماع ،دار المعرفة الجامعية، القاهرة (مصر)، 2006.

20- عثمان عيسى: الفكر الاجتماعي والنظريات الكلاسيكية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 2009.

21- علي عبد الواحد وافي: علم الاجتماع، نهضة مصر للطباعة والنشر، دس، القاهرة (مصر).

22- فاروق عبد المعطي: أوجست كونت، مؤسس علم الاجتماع الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط1، 1993.

23- فريديريك أنجلز: تر: توفيق سلوم: ديالكتيك الطبيعية، دار الفارابي للنشر والتوزيع، لبنان، 2011.

24- فيليب جونز: تر: محمد ياسر الخواجة: النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2015.

25- كارل ماركس: تر: محمد عيتاني: رأس المال، مكتبة المعارف، بيروت(لبنان)، 1982.

26- كلثم علي الغانم وآخران :**موجز تاريخ الفكر الاجتماعي**، سلسلة علم الاجتماع، الكتاب الثاني، الأهالي للتوزيع، دمشق (سورية)، ط1، 2001.

27- لورن فلوري: تر: محمد علي مقلد: ماكس فيبر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت (لبنان)، ط1، 2007.

28- ماكس فيبر: تر: صلاح هلال: مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، المركز الثقافي الألماني، القاهرة (مصر)، ط1، 2011.

29- محمد الخضر حسين:حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة (مصر)، 2013.

30- محمد أمزيان: **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا (الولايات المتحدة الأمريكية)، ط1، 1991.

31- محمد رشاد عبد العزيز محمود: الفكر الماركسي في ميزان الإسلام، مكتبة الفجر الجديد، القاهرة (مصر)، 1982.

32- محمد شهاب: رواد علم الاجتماع، دار الكتاب العربي، القاهرة (مصر)، 2012.

33- محمد عابد الجابري :**من دروس الفلسفة والفكر الإسلامي**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 2010.

34- محمد عنان: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط4، 2006.

35- نبيل السمالوطي: **الإيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر: دراسة تحليلية للمشكلات النظرية والمنهجية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (مصر)، ط1، 1985.

36- نبيل عبد الحميد عبد الجبار: تاريخ الفكر الاجتماعي، منشورات دار دجلة، (عمان)، الأردن، 2009.

37- هنري لوفير: تر: حبيب نصر الله نصر الله: الماركسية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، 2012.

38- Catherine Colliot-Thélène: **la sociologie de Max Weber**, La découverte, Paris, France, 2006.

39- Claude javeau: leçon de sociologie, Armand colin, paris, 2 édit, 2007.

40- Durkheim, Émile. Les formes élémentaires de la vie religieuse, Presses Universitaires de France, 5e édition, 2003.

41- Émile Durkheim : Le Suicide, Étude de sociologie, Presses universitaires de France, Paris, 1981.

42- Gilles Ferréol, jean pierre noreck : introduction a la sociologie, Armand colin, paris, 7édit, 2007.

43- Max Weber: Economie et société, poquet, paris,1995.

44- Philippe Steiner: La sociologie de Durkheim, Éditions La Découverte, Paris, 4em edit, 2005.

45- Thomas gay: l'indispensable de la sociologie, studyrama, France, 2004.